الطبيعة

في

الشعر الاندلسي

جميلة شحاده الخوري

وهي رسالة قدمت الى كلية
الاداب في جامعة بيروت الاميركية
لنيل
شهادة استاذ في العلوم

بيروت الجامعة الاميركية
١٩٤٦

مقـــدمة البـــحـــث

هذه رسالة تبحث في شعر الطبيعة في الاندلس. ولقد تناولت فيها قبل البحث في جوهر الموضوع وبشيء من الايجاز تاريخ الفتح الاندلسي والاسباب التي دعت اليه، والعوامل التي ساعدت على ذلك. كما انني وجدت نفسي مضطرة لكي يجيء البحث مستوفى الشروط ان اتناول حالة الاندلس الاجتماعية وما كانت عليه عندما فتحها العرب مما كان له الاثـر الفـعال في نفوس الشـــعراء وتلوين شعرهم بلون خاص.

ولن يجد القارئ بحـثـا مستفيضـا تام الاجزاء في شعر الطبيعة رغم تخصص الرسالة في الموضوع وذلك عائد لفقدان المصادر الكثيرة وعدم توفرها في هذه الاوقات امام الباحثين في الاندلس وآدابها. زد على ذلك ان دراسة الطبيعة الاندلسية في مظاهرها الخارجية وما اوحته للشعراء من جميل الشعر وتصوير الانطباعات التي انطبع بها الشعراء كنتيجة للانعكاسات الجمالية التي انعكست على نفوسهم كل ذلك يحتاج الى درس مستفيض عميق يتطلب اكثر مما هو مطلوب من رسالة كهذه الرسالة.

ولقـــد آثـــرت بـــعد ان انـــعـكفت طويلا على مطـــالـــعة الشـــعر الاندلسي وقراءته قراءة دقيقـــة وغربلتـــه ان اجـــمـــع منـــه نماذج مخـــتلـــفـــة تمثل مختلف الشعـــراء الوصفييـــن المعروفـيـن فـي الاندلـــس فجاءت الرسالة مرجعا سـهلا جامعا مبوبـا لهذا اللـــون من الشـــعـر العـــربـي في الاندلس واعـــتـــقـــد ان على ذلك تقوم اهمية البحث الذى اضـعـه بين يـدى القـــراء وارجـوه بحثـا موفـــقـــا ـــ

فهرست الرسالة

الفصل الاول (١ - ١٥)

الفصل الثاني (١٦ - ١٠٢)

المآخذ

I الصادر : (مرتبة حسب سني الوفاة)

١ ـ الضبي : احمد بن يحي بن عميرة سنة ٥٧٠ هـ " بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس " مدريد سنة ١٨٨٤ م

٢ ـ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب العباسي سنة ٢٧٨ هـ " تاريخ اليعقوبي " بريل سنة ١٨٨٣ م

٣ ـ الطبرى : ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى سنة ٣١٠ هـ " كتاب اخبار الرسل والملوك " طبع مصر ١٩٠٦ م

٤ ـ ابن عبد ربه : احمد بن محمد سنة ٣٢٨ هـ " العقد الفريد " المطبعة الاميرية مصر سنة ١٢٩٣

٥ ـ المسعودى : على بن الحسين بن علي سنة ٣٤٦ هـ " مروج الذهب ومعادن الجوهر " باريس سنة ١٨٨١ م

٦ ـ ابن حوقل : ابو القاسم ابن حوقل النصيبي سنة ٣٥٦ هـ " كتاب صورة الارض مطبعة بريل ليدن سنة ١٩٣٨ م

٧ ـ القالي : ابو علي سنة ٣٥٦ هـ " كتاب الامالي " دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤ م

٨ ـ ابن هاني : ابو القاسم محمد بن هاني الازدى سنة ٣٦٣ هـ " ديوان ابن هاني الاندلسي " بولاق سنة ١٢٧٤ هـ وفي بيروت سنة ١٨٨٤ م

٩ ـ المقدسي : ابو عبد الله محمد بن البشارى سنة ٣٧٥ هـ " احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم " سنة ١٩٠٦

١٠ ـ ابن النديم : محمد ابن الحق الوراق سنة ٣٨٥ هـ " الفهرست " ليزبك سنة ١٨٧١ م

١١ ـ ابن الفرضي : ابو الوليد عبد الله بن محمد بن الاسفا الازدى سنة ٤٠٣ هـ " تاريخ علماء الاندلس " مدريد سنة ١٨٩٢ م

١٢ ـ الثعالبي : ابو منصور عبد الله بن محمد اسماعيل سنة ٤٢٩ هـ " يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر " دمشق سنة ١٣٠٤ هـ

١٣ ـ ابن حزم : ابو محمد بن حزم الاندلسي سنة ٤٥١ هـ " طوق الحمامة في الالفة والالاف " مكتبة عرفة دمشق

١٤ ـ ابـن صاعد : القاضي صاعد ابن احمد بن صاعد الاندلسي سنة ٤٦٢ هـ " كتاب طبـقات الامم " بيروت ١٩١٢ م

١٥ ـ ابن زيدون : ابو الوليد احمد بن عبد الله سنة ٤٦٣ هـ " الديوان " مطبعة مصطفى البابي الحلبي طبعة اولى مصر سنة ١٣٥١ هـ

١٦ ـ ابن حيان : ابن مروان حيان بن خلف سنة ٤٦٩ هـ "المقتبس في تاريخ رجال الاندلس" باريس ١٩٣٧

١٧ ـ ابن حمديس : ابو محمد عبد الجبار سنة ٥٢٧ هـ
" الديوان " رومـة سنة ١٨٩٧ م

١٨ ابن خفاجـه : ابو اسحق ابراهيم ابن خفاجـه " الديوان "المطبعة الخاصة بجمعية المعارف بمصر سنة ١٢٨٦ هـ

١٩ ـ ابن خاقـان : الفتح ابن خاقان الوزير الكاتب سنة ٥٣٥ هـ

ا ـ قلائد العقيان

ب ـ مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلـس

ـ مطبعة الجوائب استنبـول سنة ١٣٠٢ هـ

ج ـ تاريخ الدولـة العبادية في الاندلس " نشر دوزى

٢٠ ـ ابن بسـام : ابو الحسن علي بن بسـام الشنتمرى سنة ٥٤٢ هـ " الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة " مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ

٢١ ـ ابن بشكوال : ابو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الانصارى القرطبي سنة ٥٧٨ هـ " كتاب الصلة " مدريد ١٨٨٣ هـ

٢٢ ـ المراكشي : ابو محمد عبد الواحد سنة ٦٢١ هـ " المعجب في تلخيص تاريخ المغرب " مصر سنة ١٩٠٦

٢٣ ـ ياقـوت : الشيخ شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى الرومي ٦٢٦ هـ

ا ـ معجم الادباء او ارشاد الاريب الى معرفة الاديب مصر سنة ١٩٢٤ م

ب ـ معجم البلدان " مطبعة السعادة مصر سنة ١٣٢٣ هـ

٢٤ ـ ابن الاثـير : ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد الملقب بعز الدين سنة ٦٣٠ " الكامل في التاريخ " الجزائـر سنة ١٩١٠ م

٢٥ ـ ابن السهل : ابراهيم ابن السهل الاسرائيلي سنة ٦٤٩ هـ
(الديوان " المكتبة العربية الطبعة الاولى مصر ١٩٢٦ م

٢٦ ـ ابن خلكان : شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان الاربلي سنة ٦٨١ هـ
" وفيات الاعيان وابناء الزمان مما ثبت بالنقل والسماع او اثبته العيان " دار الطباعة الميرية المصرية ١٢٧٥ هـ

٢٧ ـ النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب سنة ٧٣٢ هـ " نهاية الارب في فنون الادب " مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ

٢٨ ـ ابو الفداء : السلطان الملك المؤيد اسماعيل بن علي بن محمود بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين ايوب سنة ٧٣٢ هـ " المختصر في اخبار البشر " طبعة اولى المطبعة الحسينية مصر

٢٨ ـ ابن فضل الله العمري : سنة ٧٤٨ هـ " مسالك الابصار في ممالك الامصار " مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٢ هـ

٣٠ ـ ابن شاكر : محمد بن شاكر سنة ٧٦٤ هـ " سنوات الوفيات مصر ١٢٩٩ هـ

٣١ ـ ابن الخطيب : الوزير لسان الدين ابن الخطيب سنة ٧٧٦ هـ " الاحاطة في اخبار غرناطة " مطبعة الموسوعات باب الخلق طبعة اولى مصر ١٣١٩ هـ

٣٢ ـ ابن خلدون : عبد الرحمن محمد سنة ٨٠٨ هـ " كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر " مطبعة بولاق مصر ١٢٨٤ هـ

٣٣ ـ النواجي : شمس الدين محمد بن الحسن سنة ٨٥٩ هـ " كتاب حلبة الكميت " المكتبة العلامية مصر سنة ١٣٥٧ هـ

٣٤ ـ الحميري : ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم سنة ٨٦٦ هـ
صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب " الروض المعطار في خبر الاقطار " نشر لافي بروفنسال مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٧ م

٣٥ ـ المقري : شهاب الدين احمد بن محمد سنة ١٠٤١ هـ " نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب
ا ـ الطبعة الميرية السعيدية المصرية ١٢٧٥ هـ
ب الطبعة الازهرية مصر ١٣٠٢ هـ
ج ـ الطبعة الجديدة مطبوعات دار المأمون مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه مصر سنة ١٩٤٥ م

٣٦ ـ المحبي : محمد امين بن فضل الله ١١١١ هـ " خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر " القاهرة المطبعة الميرية السعيدية المصرية سنة ١٢٨٤ هـ

المـــــــراجـــــــع

١ ـ اميرعلي سيد " مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي " نقله الى العربية رياض رأفت مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨

٢ ـ الاسكندري احمد ، وعناني مصطفى : " الوسيط في الادب العربي وتاريخه " مطبعة المعارف ومكتبتهـا مصر سنة ١٩٤١م

٣ ـ البرقوقي عبد الرحمن : " حضارة العرب في الاندلس" مصر المكتبة التجارية سنة ١٩٢٣م

٤ ـ البستاني بطرس: ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث " طبعة ثانية مكتبة صادر بيروت ١٩٤٤م

٥ ـ زيـدان جورجي : " كتاب تاريخ آداب اللغة العربية " مطبعة الهلال بالفجالة مصر ١٩١٢

٦ ـ ضيف الدكتورشوقي "الفن ومذاهبه في الشعر العربي " مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة اولى القاهرة سنة ١٩٣٤م

٧ ـ كـرد علي محمد "الاسلام والحضارة العربية " دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٤

٨ ـ الكيلاني كامل: نظرات في الادب الاندلسي " مطبعة المكتبة التجارية مصر ١٩٢٤م

٩ ـ النصولي : انيس زكريا " الدولة الاموية في قرطبة " بغداد ١٩٢٦م

١٠ نوفل سيد " الشعر الطبيعة في الادب العربي " مطبعة مصر القاهرة ١٩٤٥م

11. Hitti Philip :"History of the Arabs " Macmillan & Co. Ltd. St. Martin Street, London 1937

12. Nicholson Reynold : " A Literary History of the Arabs" Cambridge at the University Press 1930

13. Peres Henry: "La poesie Andalouse En Arab Classique au XI Siecles. Librarie d'Amérique et d'Orient Paris 1937.

الفصل الاول

من الصحراء الى الجزيرة الخضراء

لمحة تاريخية عن الاندلس

ليس الغرض من هذا الفصل ان نورخ حياة العرب في الاندلس فنذكر كيف تم الفتح بالتفصيل بعد ان نقدم لذلك بالمقدمات التمهيدية ونستنتج ما يمكن من الاستنتاجات التاريخية كما يفعل المورخون . كلا ليس غرضي شيئا من ذلك ، ان هي الا لمحة سريعة خاطفة عن وصول العرب الى الاندلس نقف فيها عند بعض المظاهر التي نعتقد انها كانت جديدة على الغزاة الفاتحين فاثرت في ادابهم وعلومهم وثقافتهم .

استطاع العرب بعدة وجيزة من الزمن لم تتجاوز العقدين من السنين من تدويخ اعظم في ذلك العصر تغنى بها الامبراطوريتين الفارسية في الشرق والبزنطية في الغرب ، وهكذا بعد ان كانوا حفنة من الرجال يكتوون برمال الصحراء وحرارتها ويشوون بلهيبها المحرق تلفحهم حرارة الشمس الناتجة في النهار ويقرض اجسامهم البرد القارس في الليل اصبحوا في هذه المدة الوجيزة امة عظيمة العدد قوية الشكيمة يرهب جانبها الاكاسرة ويخشاها القياصرة ، واصبحت سوريا للكبرى ومصر وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الاقصى كلها من ولايات الامبراطورية الجديدة .

وكاني بهولاء الغزاة الابطال ، وقد دوخوا قوى الشرق والغرب فوصلوا الجزيرة العربية باطراف افريقية من ناحية واطراف الهند من ناحية اخرى قد جثموا على الشاطئ الافريقي وقد اخذتهم نشوة النصر والفتوحات ، فراحوا ينظرون الى الشاطئ الاوربي الذى لا يفصله عنهم الا شقة ضيقة من الماء محدثين انفسهم بغزوه موطنين العزم الاكيد على تدويخه واعادة تمثيل الدور الذى مثلوه قبلا مع الفرس والرومان .

وتحققت احلامهم ونالوا ما صبت اليه قلوبهم ، وتم الفتح على ايدى موسى بن نصير وطارق بن زياد ، ولا عجب في ذلك فقد كانت اسبانيا الجميلة ذات الطبيعة الحلوة الجذابة قبل الفتح العربي منهوكة القوى في حالة اضطراب وفوضى ، ترزح تحت نير القوط الغاصبين (-١-) الشديد الوطأة وتتنازعها الثورات والفتن وتتاكلها الاحزاب والفرق ، فتنفخ فيها سموم التفرقة والخذلان ، فيها شعبها يئن من عسف الارستقراطية ويتالم من الاضطهاد وجور الطبيعة الحاكمة ، فاستبد ملوكهم وزادوا الضرائب على الشعب المسكين وقسموا البلاد بين رجال الدين والاشراف .

---

(١) المقرى – نفح الطيب ، الطبعة الجديدة الجزء الثاني : ١٨١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٦

وهنالك العبيد الذين كانوا يباعون ويشترون كحيوان من الحيوانات او متاع من امتعة البيت ، وكانوا كثيرى العدد بالنسبة الى الاحرار يعاملون بلا شفقة ولا رحمة تلعب السياط بابدانهم وتزهق ارواحهم ظلمات السجون ، ولذا كانوا يهربون الى الاحراج ويقيمون في الاودية يسطون على املاك اسيادهم من وقت الى آخر ويسلبون السابلة ويقطعون الطريق

وكان الى جانب التالين من الشعب الاسباني اليهود ، الذين كانوا يعانون اقصى انواع العذاب والاضطهاد من جور الطبقة الحاكمة والكهنة والاعيان .

هذه كانت حالة الشعب الاسباني عشية الفتح الاسلامي (١) . وفي ساعة النزع المض اشرق عليهم قبس الحرية من جهة لم تكن بالحسبان فلم يكن من الغريب اذا ان يتمسك الاسبان به ، وينظروا الى العرب كمخلصيهم من العبودية والاضطهاد ، وخصوصا لما عرف من العرب من التساهل والتسامح وما رآه ولمسه الاسبان انفسهم في افريقيا عندما كانوا يلجأون اليهما من ظلم حكامهم وجورهم (٢) .

ولهذه الاسباب لم يلق طارق بن زياد وجيوشه مقاومة تذكر عندما التقوا بالذريق القوطي وجنده فهزموهم شر هزيمة بالقرب من قادس (٣) ، ففتحوا اسبانيا وظلوا يتوغلون فيها حتى بلغوا بعد احدى وعشرين سنة من غزوها قلب افرنسا عند مدينتي (تور) (وبواتية) (٤)

لكن هذا الانتصار المبين لم يكفل لتلك البلاد الطمأنينة والسلام كما كان ينتظر وانما ظلت بلاد الاندلس عمالة اموية يولى عاملها من قبل الخليفة تارة ومن الوالي في القيروان اخرى مدة ٤٦ عاما تولى فيها الامارة عشرون عاملا (٢٠) في فتح وجهاد ، وقتال ونضال ، واضطرام ثورات وفتن (٥) . ذلك ان هذا المجتمع الجديد الذى جمع الاسلام شمله مزج عناصر مختلفة النزعات ، متطاحنة الاهواء ، فلقد وصل اليه العرب عقب الفتح من مختلف القبائل من عدنانية وقحطانية ويمنية ومضرية وقبائل مختلفة من مصر والعراق والشام كما سبقتهم الى البلاد الجديدة عصبيتهم القبلية وغيرتهم وحسدهم المتاصل في نفوسهم فعملت كل قبيلة

---

(١) History of the Arabs - Hitti, P:498 -99
النصولي ـ الدولة الاموية في قرطبة النصولي عن Dozzy, Coppe, Milwan, Scott, P: 5-13

(٢) سيد اميرعلى مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ٩٢ـ٩٣

(٣) ابن خلدون المجلد الرابع ص ١١٧ المقرى طبعة جديدة الجزء الثاني ص ١٣٥

(٤) Hitti History of the Arabs P.500.

(٥) المقرى طبعة جديدة الجزء الثاني ص (١١ـ١٢) (١٣٢ـ٤٥) ٢٩٩ ابن خلدون م ٤٠ ص ١١٨ـ١٩

للقضاء على الاخرى لتستأثر بالملك والسلطان (١) . ومما زاد الامر خطورة تفاقم القادة والرؤساء وتنافسهم وتناحرهم ذلك التناحر الذى اخذ يمزق الصفوف ويشتت الشمل (٢) . كما ان رجال قبائل البربر الذين يتالف منهم معظم الجيش قد اخذوا يشعرون بوطأة الارستقراطية العربية واستئثار العرب بالسلطة والمغانم مع انهم هم اصحاب الحق في ذلك ، فنقموا على قوادهم العرب وابغضوهم ، وتالبوا عليهم وكانوا يتحينون الفرص للايقاع بهم والقضاء عليهم . ولذلك ما كاد العرب يستقرون في بلادهم الجديدة حتى فاجاتهم الثورة البربر التي امتد لهيبها اليهم من شمالي افريقيا فاقضت مضاجعهم وحرمتهم الراحة والطمأنينة غير انهم ما لبثوا ان قضوا عليها بيد من حديد (٣) . وما كانت نيران البربر لتخمد الا لتبعث العداوات القديمة المستحكمة بين القبائل والبطون العربية التي كانت دائما على تمام استعداد لاثارة القلاقل والفتن ، وكان هنالك علاوة على هذه العناصر المتطاحنة عناصر اخرى زادت الامر خطورة هي القوط وغيرهم من مسيحيين ويهود (٤) .

غير انه يجب ان لا نغمط الفتح حسناته فمع ان العرب شغلوا في بادى الامر بتوطيد الفتح الجديد وتوسيع حدوده استطاعوا في اعوام قلائل ان يقمعوا عناصر الشر والفوضى التي كانت مستولية على البلاد وان ينظموا ادارة البلاد المفتوحة ، فقد قضى الفتح على الطبقات الممتازة ، فتنفس الشعب المظلوم الصعداء ، نعم لقد فرض العرب الضرائب ولكن بالعدل والمساواة واستطاع الناس ان يؤمنوا على حرياتهم وحياتهم واموالهم (٥) .

اما من الناحية الدينية فقد اظهر العرب تسامحا كبيرا فقد تركوا للاسبان حق الاختيار ، اما البقاء على دينهم ودفع الجزية واما اعتناق الاسلام فتسقط عنهم الجزية فيصبحون والمسلم سواء بسواء في الحقوق والواجبات (٦) .

وبينما كانت القلاقل والثورات تسود هذا المجتمع العربي الجديد في هذه الدنيا الجديدة كان الشرق العربي يتخبط في حالة من الفوضى والحروب الداخلية لا تقل عما كانت عليه في الغرب ، فقد غلب الامويون على امرهم وقامت على انقاضهم دولة العباسيين الفتية التي اخذت على عاتقها ابادة الامويين عن بكرة ابيهم ولكن تابى الاقدار الا لتكتب النجاة لشاب

---

(١) المقرى طبعة جديدة الجزء الثاني ص ٢٦٣ـ٢٩٨ Hitti 501 - 503

(٢) المقرى طبعة جديدة الجزء الثاني ١٣٢ـ١٤٥ ابن خلدون جزء ٤ ص ١٢٠

(٣) ابن خلدون بالجزء الرابع ص ١١٨ ، ١٢٣ Hitti 502 - 503

(٤) A literary History of the Arabs, Nicholson P:405 Ch.IX.

(٥) سيد اميرعلى مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ٩٨ Hitti 510. "

(٦) Hitti 510 " " " " Nicholson 408

لم يتجاوز العقد الثاني من عمره ، اصهب خفيف العارضين ، طويل القامة ، نحيف الجسم بوجهه خال (١) ، هو عبد الرحمن حفيد الخليفة الاموى هشام فينسل هربا من وجه العباسيين ميمما وجهه شطر الاندلس فاستطاع بشجاعته وطموحه وثقته بنفسه ان يؤسس دولة اموية عربية سنة ١٣٨ هـ ٧٥٥ م . — ١٠٣٠ م . دون ان يبذل مجهودا حربيا يذكر ساعده على ذلك العداوات العنصرية والفتن المستحكمة بين القبائل (٢) واستمر حكم الامويين الى سنة ٤٢٢ هـ اى مدة ٢٨٤ سنة حكم اثناءها تسعة عشرة خليفة فقطعت فيها الدولة شوطا بعيدا من الرقي والحضارة (٣)

ان قيام الدولة الاموية في الاندلس لم تقض على العداوات والحزازات الخطرة فعمل عبد الرحمن الداخل على التغلب عليها ولكنه اقترف اشد خطيها وهو استخدام الاجانب ووضع قوته فيهم فاستعان بالبربر (٤) وانتهى ينهار حتى استقلت اطراف المملكة وقام في كل جهة فيها مغتصب من العرب والموالي والبربر واقتسموا القاب الخلافة فيما بينهم فمن مقتدر الى معتضد ومن مستعين الى معتمد حتى كثرت الالقاب وتعددت الخلافات فذهبت بهجتها وزالت روعتها وقال فيهم شاعرهم :

مما يزهدني في ارض اندلس   تلقيب معتضد فيها ومعتمد

القاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد(٥)

وهؤلاء هم المسمون في تاريخ البلاد بملوك الطوائف فقد حكموها مستقلين كل منهم بناحية كابن عباد في اشبيلية ، وابن هود بسرقسطة ، وابن الاطلس في بطليوس وذى النون في طليطلة وكان اقوى هؤلاء جميعا العباديون حكام اشبيليا وقد كانوا يفاخر كل منهم جاره ويسعى في الفوق عليه بترقية بلاده واتساع رقعتها وبسط نفوذه على مجاوريه بالنزاع المستمر والقتال الدائم مما سهل للعدو طريق الوصول اليهم والتغلب عليهم (٦) فقد الفت اسبانيا المسيحية الفرصة سانحة لاسترداد مجدها المفقود فاخذت تولب دويلات الطوائف بعضها

---

(١) المقرى طبعة جديدة الجزء الثالث ٨٤ — ٨٥

(٢) المقرى الجزء الثالث طبعة جديدة ٧١ — ٩٠ ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٢١ — ١٢٢

(٣) « « « « « ٧١

(٤) « « « « « ٨٧ ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٢٣

(٥) المقرى نفح الطيب الجزء الثاني ص ٩٤

(٦) ملوك الطوائف دوزين ٦ — ٩ نيكولسن ٤١٤

على بعض دون ان يعمل ملوك الطوائف على تجنب الخطر الداهم بل اخذوا يرتمون في احضان الاجانب . وحدث في هذه الاثناء ان ظهرت دولة المرابطين (١) ١٠٥٦ - ١١٤٦م ٤٤٨ هـ - ٥٤١ هـ من برابرة افريقيا الشمالية فاخضعوا البلاد لسلطانهم وقضوا على الدولة النصرانية واصبحت دولة الاندلس ولاية افريقية ولكن ما لبثوا ان دب الفساد بين صفوفهم وتقوضت مملكتهم لتقوم مكانها دولة الموحدين (٢) التي نشأت بمراكش في اوائل القرن السادس هـ ١١٣٠ - ١٢٦٩م ٥٢٥ هـ . ثم لم يلبث بعض امراء الاندلس ان ثاروا عليهم وردوهم الى بلادهم (٣) وكان في مقدمة هؤلاء الثائرين ابن هود (٤) وابن الاحمر (٥) وقد ملك ابن هود شرق الاندلس جاعلا سرقسطة قاعدة له كما حكم ابن الاحمر غرناطة ولكن الحالة لم تبقى هادئة بل نشب قتال عنيف بين ابن هود وابن الاحمر انتهى بهزيمة ابن الاحمر واستيلاء وبقي حكمهم زهاء القرنين والنصف (٦) .

وفي هذه الاثناء كانت المملكة النصرانية قد نمت واتسع نطاقها واستولت على قواعد الاندلس وثغورها العظيمة كقرطبة وطليطلة واشبيلية ومرسيه وبلنسيه وسرقسطه وغيرها كما تقلصت الدولة العربية واجتمعت اشلاؤها بغرناطة التي بقيت محافظة على مركزها والتي سطعت فيها لمحة من عظمة الاندلس الذاهبة وحضارتها الزاهية مدة من الزمن . غير انها ما لبثت ان انتقلت اليها العدوى المشؤومة ولم يمض وقت بعيد حتى اخذت تمزقها المعارك الداخلية والمنازعات بين الرؤساء . فاخذ يثب افرادها بعضهم على بعض ممهدين الطريق للعدو الرابض المتربص لهم جميعا .

وكان مصرع الاندلس خلال احدى هذه المعارك الداخلية وما زالت قصة السلطان ابي الحسن واخيه الزغل . وابنه عبد الله ابي محمد وانشقاق المملكة الصغيرة في ادق ساعات الخطر الى شطرين والتجاء ابي عبد الله الى ملك النصارى لينصره على ابيه وعمه وانتهاز النصارى هذه الفرصة لالقاء ضربتهم الاخيرة على تلك المملكة التي مهدت لهم سبل الظفر بتمزيق بعضهم البعض . ظلم الامة التي لم تعرف معنى للاتحاد (٧)

---

(١) ابن خلدون الجزء الرابع ١٦٢
(٢) " " " " ١٦٦ - ١٦٧ Nicholson 430 -32 , Hitti 541-546
(٣) " " " " ١٦٧ - ١٦٨ Nicholson 432-33 Hitti 546-48
(٤) " " " " ١٦٩ - ١٧٠
(٥) ابن خلدون الجزء الرابع ١٧٠ - ١٧٩
(٦) " "
(٧)

Hitti 551-555 Nicholson 439-441

زاوية من زوايا المجتمع الاندلسي

لقد كان من نتيجة استيلاء العرب على الاندلس ان تمخضت البلاد عن ثورة اجتماعية هائلة ، فقد الغيت حقوق الطبقات الممتازة ورفعت الاثقال عن كواهل الشعب المسكين الذى كان يئن من عسف الطبقات العليا المؤلفة من النبلاء ورجال الاكليروس ، واستبدلت الضرائب الباهظة بضرائب عادلة تتناسب وحالة الاهلين على مختلف الطبقات ، كما الغيت القيود التي سحقت التجارة وارهقت الطبقة الوسطى (١)

فقد فرضت الجزية على الذميين والخراج على المسلمين والذميين وكانت الجزية زهيدة جدا يستثنى من دفعها الرهبان والنساء والاطفال بوجه عام ، والمقعدون والعمي والمرضى والارقاء بوجه خاص (٢) اما الخراج فكان يراعى في جبيه الحالة الزراعية في ذلك العام (٣) كما انه اعطي لليهود تمام الحرية في التصرف في ممتلكاتهم واقامة شعائرهم الدينية وكانوا يعاملون والنصارى والمسلمين سواء بسواء (٤)

وهكذا فقد كان من الطبيعي ان تتحسن حالة الطبقة المستعبدة ، فاصبحوا احرارا يستاجرون الارض من اصحابها ويفلحونها ولا حق لاصحابها الا باخذ اربعة اخماس محصولها (٥) كما نرى ان المهاجرين العرب الذين وفدوا الى الاندلس من ممالك زراعية بطبيعتها كمصر وسوريا وايران اقبلوا على وطنهم الجديد بهمة ونشاط وشمروا عن ساعد الجد للعمل وترقية البلاد وتحسينها وخلقها من جديد بعد ان كانت مشلولة خاملة ايام الملوك السابقين فرأوا الارض الواسعة قاحلة مجدبة ، فتعهدوها برطايتهم وعلمهم ، لانهم كانوا ملمين بخواص الزراعة والفلاحة ، بل جعلوا الفلاحة علما قائما بذاته فاستطاعوا ان ينموا المحصولات ويستخرجوا الكنوز ، كما عرفوا ملاءمة التربة والطقس لزرع النباتات المختلفة وهكذا اخصبوا الارض القاحلة وعمروا المدن المهجورة ، وزينوها بالتماثيل الجميلة والحدائق الغناء ، وربطوا بينها بالتجارة ، وشجعوا العلوم والفنون • وهكذا جعلوا من اسبانيا جنة وارفة الظلال تجرى من تحتها الانهار •

وامتدت الفتوحات ، واتسع الملك ، واستتب الامن وتدفقت الاموال ، وتبحر العمران ، وعمد الناس الى حياة الترف والترف من مستتبعات الحضارة ، اذ تتجه اليه الامم بعد عصور النهضات لتجني ثمرات جهادها وكفاحها الذى بذلته في عهود النهوض والكفاح والتمهيد ، وتصبح تواقة الى الاستمتاع بخيرات الحياة في ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد توطيد اركانها ، وفي بحبوحة الثروة والنعمة اللتين تدفقتا على الدولة بعد جهاد السنين والاجيال •

---

(١) HITTI 510

(٢) HITTI 509 - 510

(٣) سيد امير علي — مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ٩٨

(٤) • • • • • • • • • ٩٨

(٥) • • • • • • • • • ٩٩

HITTI 510

ولعل اكثر الامم اقبالا على وسائل الترف والتبحر فيه اشدها من قبل خشونة في العيش واصلبها واقواها مراسا في ميدان تنازع البقاء ، واتمها غلبة وظفرا على البلدان ، بل اكثرها ربحا من اسلاب اعدائها وارزاقهم فلا غرو اذا ان تجنح الى الراحة بعد الجهد والعناء ، وان تغالي في الاستمتاع بعد الصد والحرمان ٠ فلا عجب اذا ان تصل اسبانيا الى ذروة سامية في حياتها الاجتماعية بعد ان اصبحت ميزانيتها على زمن الناصر خمسة آلاف الف دينار واربعمائة الف وثمانين الف دينار هذه من الجباية فقط ومن السوق والمستخلص سبعمائة الف دينار وخمسة وستون الف دينار (١)

وهكذا نرى ان العرب احدثوا تطورا هائلا في حياة البلاد الاجتماعية ، فقد وجد اهل البلاد في الفتح يسرا وراحة لم يعهدوها من قبل ظهرت في مظاهر مختلفة من تنظيم للعيش ورفع مستواه ، الى مسكن ومأكل ومشرب ولهو وغناء ، الخ ٠٠٠٠ تركت جميعها اثرا واضحا في الادب الاندلسي ٠ ولعل الناحية العمرانية من هذه النواحي الاجتماعية المختلفة هي التي تهمني بصورة خاصة ، لان بحثي يقوم في جوهره على الشعر الطبيعي الاندلسي والمطلع على التاريخ الاندلسي يرى العلاقة الوثيقة القائمة بين العمران ووصف الطبيعة في الشعر الاندلسي ٠ فقد نظم الشعراء جل شعرهم في هذه المباني الضخمة والقصور الباذخة وما حوته من رياض وبساتين وبحيرات ونواعير ٠ لذلك اراني مضطرا لان اتوسع في بسط هذه الناحية التي تركت اثرا بارزا في الشعر الاندلسي ٠

لقد اهتم الامراء والخلفاء والولاة ورؤساء الدولة بالناحية العمرانية فوسعوا المدن ، وبنوا المباني العظيمة والمساجد البديعة ، وشادوا القصور الفخمة ، وحاكوا بها في الجلال والعظمة قصور المشرق ، وقد تفننوا في هذه الابنية وبذلوا الاموال الطائلة في سبيلها ، حتى ان عبد الرحمن الناصر خصص ثلث الخزينة وتقدر بمئتي وخمسة واربعين الفا من الذهب للبناء والعمران (٢) ٠ كما نرى ان عبد الرحمن الداخل مع انهماكه الشديد في قمع القلاقل والفتن والقضاء على الفوضى التي كانت مسيطرة على الاندلس ابدى عناية خاصة بفني الزراعة والعماره وعمل على انهاضهما ، وما زال بهما حتى بلغا شأوا عظيما ، واصبحت قرطبه على عهده تحاكي مدينة بغداد في اتساع شوارعها وضخامة مبانيها وكثرت فيها الحمامات والفنادق ، وانتشرت البساتين على طول ضفة الوادي الكبير كما بنى المدارس الكثيرة وهو الذي شرع في بناء جامع قرطبه الشهير عام مائة وسبعين هجرية كما اخرج عليه مائة الف دينار ، وقد قيل ان هذا الجامع كان من العجائب (٣) وسيأتي ذكره بعد قليل ٠

---

(١) المقرى المجلد الاول الجزء الخامس ٢٧٥

(٢) " الجزء الثالث الطبعة الجديدة ٢١٩

(٣) " الطبعة الجديدة الجزء الرابع ٣١٤ـ٣١٨

وها نرى ان بركان الفتن والاضطراب قد هدأ على زمن عبد الرحمن الثاني · وخيم الامن والسلام ، واعترى الاندلس فترة سكون وهدوء فكثرت فيها الاموال ، فاعتنى عبد الرحمن الثاني بهاالمشاريع العلمية فشيد الجسور والمساجد والقصور (١) واقام الجنائن التي تجرى بها البحيرات الصغيرة المجلوبة من الجبال (٢)

وكفى الناصر فخرا انه باني مدينة الزهراء فقد عرف عنه ولعه الشديد بالعماره وتشييده المباني والقصور وقد عرف عصره بالعصر الذهبي · وقد جلب الماء هو ايضا الى القصور من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية · ثم اخذ في بناء المنتزهات ، فاتخذ مينا الناعوره خارج القصور ، وساق لها الماء من اعلى الجبل على بعد المسافة (٣)

وكذلك نرى ان هؤلاء الخلفاء والامراء والقادة والنبلاء تنافسوا في تشييد القصور وتجميلها وتزيينها سواء كان بتنسيق البساتين الجميلة وغرسها بانذر الزهور والفاكهة او باقامة التماثيل وبناء البرك والبحيرات التي جاءت آية من آيات الفن والابداع ·

ولقد شجع هؤلاء الامراء والخلفاء الادب والادباء والشعر والشعراء فكان من الطبيعي ان يهرع هؤلاء الادباء والشعراء الى البلاطات يتزلفون ويمدحون ، ويصوغون القصائد الطويلة في المدوح وقصوره ومبانيه وحدائقه وما حوت من اطايب الاثمار والاشجار ، والازهار ، وهكذا اصبح الشاعر وقفا على هذه المباني وبساتينها وما حوته من الجمال الطبيعي الى جانب الجمال المصطنع ، فكان الشاعر بدلا من ان ينظم قصائده في الانهار المنسابة في الفلاة والبرارى وفي الاشجار ، يقف شعره على التغني بمحاسن القصور والبساتين المار ذكرها ·

وتظهر محبة الرحمن الداخل للعلوم والآداب في اظهاره عناية خاصة بها واكثاره من عقد الاجتماعات الادبية والعلمية والفلسفية وبنائه للكثير من المدارس · كما ان الكثير منهم كان ينظم الشعر ، فلقد كان عبد الرحمن الثاني عالما فاشتد ميله الى العلماء وكان اديبا فرفع مكانة الادباء وكان عالما بالفلسفة والشريعة فبجل الفقهاء ومن ثم ازدحم بلاطه بالعلماء والشعراء ورجال الادب (٤)

ولقد كان هؤلاء الخلفاء والامراء على صواب في شدة شغفهم بالبناء ، فقد كانت الحياة في الاندلس تتطلب هذا · فعلاوة على التانق في البناء والعمران كان يعود عليهم بالراحة والرفاهية ، كانت هذه الناحية تجذب اعجاب الناس واحترامهم لهم ذلك ان الاندلسي كان يميل الى البناء العظيم الفخم ويشعر ان البناء العظيم يدل على عظمة الباني ·

كما نرى ان الخليفة لم يكتف بتهيئة اسباب الراحة لنفسه فحسب بل شيد الجوامع والحمامات واقام الجسور والقلاع وبنى المنتزهات لتتوفر اسباب الراحة لشعبه · فكانوا يهرعون زرافات ووحدانا الى هذه المنتزهات يقضون نهاراتهم بين فورات المياه العذبة وأريج الازهار الجميلة وتحت ظلال الاشجار الوارفة ·

---

(١) النصولي ص· ٦٧ عن Lane Poole P.78 (٢) ابن خلدون الجزء الرابع ١٣٠

(٣) ابن خلدون (٤) ابن خلدون المجلد الرابع ١٣٠ — المقرى الجزء الاول ١٦٢

وقد سئل احد الولاة مرة ، كيف تانقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن اهل قرطبه ، فقال علمت انهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عند هم قدر ناحببت ان يبقى لي في بلاد هم اثر اذكر به على رغمهم (١)

وقال صاحب النفح "واعلم ان المباني دالة على عظمة قدر بانيها " . ولم يزل البلغاء يصفون المباني باحسن الالفاظ والمعاني ، ومن ذلك قول ابن حمديس الصقلي في دار بناها المعتمد " (٢)

وفي هذا المعنى قال منذر ابن سعيد الشاعر عندما دخل على الناصر وهو منهمك في الاشتغال بالبنيان :

هم الملوك اذا ارادوا ذكرها	من بعد هم فبالسن البنيان
او ما ترى الهرمين قد بقيـاوكم	ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه	اضحى يدل على عظيم الشان (٣)

هذه هي نظرة الاندلسي الى البنيان فعظمة البناء تدل على عظمة الباني ، كما ان البناء يخلد بانيه .

وهكذا فقد تفنن الاندلسيون بالبناء فاستعملوا المواد المختلفة كالجير والجص (٤) والرخام الذى فيه الابيض الناصع اللون والخمرى الغريب الشكل ومنه ما هو موشى في حمرة وصفرة ومنه الحالك والمجزع (٥) واما الوردى والاخضر فكانوا ياتون به من افريقيا (٦) واستخدموا الرصاص في القنوات والذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المحول (٧) وكانت القرامد مذهبة او مفضضة واستخدموا العاج والابانوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر (٨) والصخر المنحوت المعدل والصخر والآجر غير المعدل (٩) والبلور الصافي (١٠) والفخار المزجج (١١) واستخدموا المرمر المسنن والحديد (١٢) واستعملوا نوعا من الرخام الصقيل المعروف بالملوكي (١٣)

---

(١) المقرى المجلد الاول الجزء الرابع ١٢٩
(٢) المقرى المجلد الاول الجزء الرابع ١٧٨ـ ١٧٩
(٣) " الطبعة الاميرية الجزء الاول ٢٦٩
(٤) " الطبعة الاميرية " الاول ٢٦٩
(٥) " " " " " ٩٥
(٦) " " " " " ٢٥٠
(٧) " " " " " ٢١٩
(٨) نفح الطيب الاميرية " " ٢٥٠
(٩) نفح الطيب الاميرية " " ٢٤٩
(١٠) " " " " " ٢٥٠
(١١) " " " " " ٩٥
(١٢) " " " " " ٢٦٩
(١٣) " " " " الثاني ٧٩٤

ونرى ايضا ان الخلفاء والامراء لم يقصروا همتهم على القصور والحدائق وتوفير الراحة لانفسهم فقط بل اهتموا بالمدينة وتوسيعها وتجميلها لكي يضمنوا الراحة لشعبهم فقد كانت الشوارع متسعة والمباني مرتفعة وضخمة والديار فسيحة كبيرة (١) اما المياه فكانت توزع داخل المدينة بطرق هندسية فنية على البيوت والاسواق والحمامات والارجاء الداخلية والخارجية ، والبساتين كما حدث في غرناطة التي سميت بدمشق الشام (٢) وهذه المياه تتوزع بواسطة قنوات من الرصاص تقام على حناياها تؤديها الى القصور والبحيرات والبرك والاحواض والصهاريج (٣) ولكي نعطي صورة واضحة عن هذه المدن الاندلسية ، وتنسيقها وعمرانها من مباني وقصور ومساجد ، اجد ان اتكلم عن بعض مدنها الشهيرة مثل قرطبه والزهراء .

قرطبـــــــه

تقع قرطبه في سهل خصب واسع على سفح جبال سيرا مورينا بحيث تؤلف مدرجا بشكل نصف دائرة على الشاطئ الايمن لنهر الوادى الكبير (٤)

وقد وصف بعضهم قرطبه قائلا : "قرطبه من الاندلس بمثابة الرأس من الجسد ، نهرها احسن الانهار مكتنف بديباج المروج مطرز بالازهار ، تصدح في جنباته الاطيار وتنعر النواعير ، ويبسم النوار وقرطاها الزاهرة والزهراء حاضرتا الملك وافقاه النعماء والسراء" (٥)

وقال آخر : "جوفها شمام وغربيها قمام ، وقبلتها مدام ، والجنة هي والسلام" (٦) ويعني بالشمام جبال الورد ، وبقمام ما يؤكل وبالمدام النهر .

ديارها فسيحة كبيرة ، شوارعها متسعة ، مبانيها ضخمة مشيدة ، هواؤها معتدل ، ونهرها جار عذب ، كثيرة الاشجار والرياض (٧) عديدة السكان ، فسيحة الاسواق نظيفة (٨)

---

(١) المقرى المجلد الاول الجزء الاول ٣٠٣ — الطبعة الاميرية ٢١٧

(٢) " الطبعة الاميرية " الثاني ٧٩٣

(٣) " " " " الاول ٢١٩

(٤) امير سيد علي — مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي

(٥) المقرى المجلد الاول الجزء الاول ٣٠٢

(٦) " " " " " ٣٠٣

(٧) " " " " " ٣٠٤

(٨) " " " " الرابع ١١٣

لقد تفنن ملوك العرب بتجميل قرطبه وتوسيعها فعمل عبد الرحمن الداخل على تعظيمها فجدد مغانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ووسع فناءه واصلح مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة منزها له واتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة نقل اليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الاقطار (١)

وقد جاء في النفح ان دور مدينة قرطبه بلغت الثلاثين الف ذراع (٢) ودور قصر امارتها الف ذراع ومائة (٣) وعدد ارباضها واحدا وعشرين في كل ربض فيها من المساجد والاسواق والحمامات ما يقوم باهله ولا يحتاجون لغيره (٤) كما ان بخارج قرطبه ثلاثة آلاف قرية (٥)

وليس ادل على عظمة قرطبه وفخامتها في تلك الايام من قول بعض مؤرخي العصر "بان المسافر يستطيع ان يسير عشرة اميال في طريقها على ضوء المصابيح " ويقول كاتب آخر ان المدينة امتدت ٢٤ ميلا طولا و ٦ اميال عرضا وكانت كل هذه المساحة زاخرة بالقصور والجوامع والمنازل والحدائق على ضفاف الوادى الكبير كما كانت ضواحيها مقسمة الى ٢٧ حيا يسكنها افراد الطبقة الغنية ورجال الدولة وكان لكل حي جوامعه واسواقه وحماماته .

وجلبت المياه من الجبل ووزعت في المدينة ، اذ كان اول عمل قام به الحكم عند توليته الملك اقامة القناة التي تحمل الماء العذب من جبل قرطبه الى المدينة وقد زاد خلفاؤه عدد تلك القنوات و فاجروا المياه العذبة في قنوات نحاسية في كل ساحة من ساحات البلد وكانت الاحواض والصهاريج مصنوعة من المرمر المنقوش او من النحاس المموه ، كما كانت في بعض القصور تصنع من الذهب الابريز او الفضة .

وقد اغرم العرب برؤية المياه تجرى على مختلف الاشكال والانواع ولهذا انشئت حول القصور حدائق غناء ورياض انيقة تجرى من تحتها الجداول العذبة ، كما شيد عبد الرحمن الثالث قناة عظيمة تجرى فيها المياه العذبة المجاور الى المدينة على حنايا معقودة ينساب ماؤها الى بحيرة عظيمة وقد اقيم عليها اسد عظيم الصورة ، بديع الصنع شديد الروعة مطلي بالذهب وعيناه جوهرتان نفيستان فيها وميض عجيب . يجوز الماء الى عجز هذا الاسد فيدفعه الى البحيرة ، وبجانبه تمثال لانسان هائل يصب الماء على الاسد ومن ثم يتحول الماء الزائد الى النهر بعد ان تنال المدينة كفايتها ، وتسقى الحدائق والجنان (٦)

---

(١) المقرى الطبعة الجديدة الجزء الخامس ٧
(٢) " " " " الرابع ١٠٢
(٣) " " " " " ١٠٣
(٤) " " " " " ١٠٣
(٥) " " " " " ١٠٣
(٦) " " " " الخامس ٥٤

ولا ننس ونحن بصدد قرطبه حديقة الرصافة التي بناها عبد الرحمن الاول والتي اصبحت انموذجا في كافة ممالك اوروبا المتمدنة ، اذ كانت تزخر بالزهور النادرة والاشجار الوارفة التي كانت تجلب اليها من سائر انحاء العالم ومما زاد في رونق وبهاء تلك الحديقة الغناء القصر المنيف الدارس الذى كان يطل عليها .

ومن عجائب قرطبه ايضا مسجدها الشهير الذى بناها الداخل ، واتمه هشام الاول ، وجمله الناصر ، فجاء آية في الفن والابداع . وقد انفق الحكم في زيادة هذا الجامع مائة الف وواحدا وستين الف دينار ونيفا وكله من الاخماس (١) وعندما شرع عبد الرحمن الداخل في بنائه سنة ١٧٠ هجرية اخرج عليه مائة الف دينار وقد قيل ان هذا الجامع كان من العجائب ومن عجائبه احتواؤه نحو ثلثمائة وستين طاقا طاقا على عدد ايام السنة تدخل الشمس كل يوم من طاق الى ان يتم الدور ثم تعود (٢) وقد قيل ايضا ان فيه تنورا من نحاس اصفر يحمل الف مصباح (٣) اما باب مقصورة الجامع فكان من الذهب وكذلك جوار المحوار وما يليه وقد اجرى فيه الذهب على الفسيفساء ، وثريات المقصورة فضة محض وارتفاع الصومعة ثلاثة وسبعون ذراعا الى اعلى القبة المتفتحة التي يستديرها المؤذن وفي رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة ، ودور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف ، فاثنتان من التفافيح ذهب ابريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بابدع صنعة ، وقد وضع على رأس الزج رمانة ذهب صغيرة وهي احدى غرائب الارض (٤) وهكذا نرى ان اهل الاندلس جعلوا زينة مساجدهم على اشكال الفاكهة والزهور .

وكان عدد سوارى الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بجانبه وقبابه ومناره بين كبيرة وصغيرة الف واربعمائة وسبعة عشر سارية ، وقيل اكثر (٥) وعدد ثريات الجامع مابين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا ، وعدد الكؤوس سبعة الآف كأس واربعمائة وخمس وعشرون كأسا . وزنة مشاكي الرصاص للكؤوس المذكورة عشرة ارباع ، وزنة ما يحتاج اليه من الكتان للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة ارباع القنطار ، وجميع ما يحتاج اليه الجامع من الزيت في السنة خمسمائة ربع ، ومما كان يختص به في شهر رمضان ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة ارباع القنطار من الكتان المقطر (٦)

---

(٢) المقرى الطبعة الجديدة الجزء الخامس ٧

(٤) المقرى الطبعة الجديدة الجزء الخامس ١١

(٥) " " " " " ١٤

(٦) " " " " " ١٤-١٥-١٦

وفي هذا الجامع من النقوش والرسوم ما لا يقدر احد على وصفه ، ويقبلته صناعات تدهش العقول
وفي عضادى (ناحيتي) المحراب اربعة اعمدة اثنان اخضران ، واثنان لازورديان ليس لها قيمة لنفاستها
وبه منبر نفيس خشبه ساج وآبنوس وبقم وعود قاقلي . وفيه حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لاجل
الوقود ، وللجامع عشرون بابا صفحات بالنحاس الاندلسي مخرمة تخريما عجيبا يعجز البشر ويبهرهم (١)
ومما هو جدير بالذكر ان النساء كن يذهبن ايضا للجامع للصلاة وقد خصص لهن اماكن ومقصورات منفردة (٢)

الــــزهـــــراء

بنى هذه المدينة العجيبة الخليفة الناصر بناء على طلب جاريته المحببة اليه الزهراء ، اذ قالت
له يوما اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي فلبى طلبها وبناها تحت جبل العروس
وهي على نحو اربعة اميال من قرطبه وجعلها xx مستنزها ومسكنا للزهراء وحاشيته وارباب الدولة ونقش
صورتها على الباب ولما قعدت الزهرة في مجلسها نظرت الى بياض المدينة وحسنها في حجر ذلك الجبل
الاسود فقالت : الا ترى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي ، فامر الناصر بزوال ذلك
الجبل فقال بعض جلسائه : اعيذ امير المؤمنين ان يخطر له ما يشين العقل سماعه فلو اجتمع الخلق ما
ازالوه حفرا ولا قطعا ، ولا يزيله الا من خلقه . فامر بقطع شجره وغرسه تينا ولوزا ولم يكن منظر احسن
منها ولا سيما في ازمان الازهار وتفتح الاشجار وهي بين الجبل والسهل (٣)

ويجب ان لا نستغرب ذلك من الناصر حتى ولا ازالة الجبل فقد كان كلفا بعمارة الارض
واقامة معالمها واستنباط مياهها واستجلابها من ابعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة
السلطان وعلو الهمة فافضى به الاغراق في ذلك الى ان يبذل الاموال الطائلة لبناء مدينة الزهراء (٤)
وهو الذى خصص ثلث الخزينة لبناء الزهراء وكانت الجباية تقدر بخمسة الآف الف دينار واربعمائة الف
وثمانين الف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة الف دينار وخمسة وستون الف دينار (٥) واتصل
بنيان الزهراء ايام الناصر خمسا وعشرين سنة شطر خلافته ، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها
وكانت خمسة عشر عاما واشهرا (٦)

---

(١) المقرى المجلد الاول الجزء الخامس ٤١ ـ ٤٢
(٢) " " " " " ١٦
(٣) " " " " الرابع ٢٧٤
(٤) " " " " الخامس ٦٩
(٥) " " " " الرابع ٢٧٥
(٦) " " " " الخامس ٦٥

وسوف لا نستكثر هذه الاموال الطائلة التي صرفت في بناء الزهراء اذا علمنا انه كان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب الف وخمسمائة دابة وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة ، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر الغير معدل (١) وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر الفا وسبعمائة وخمسين فتى ودخالتهم من اللحم كل يوم حاشا انواع الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان ثلاثة عشر الف رطل ، وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلثمائة واربع عشرة امراة (٢) والمرتب من الخبز لحيتان البحيرة بحيرة الزهراء اثنا عشر الف خبزة كل يوم ، وينقع لها من الحمص الاسود ستة اقفزة كل يوم (٣) وقدرت الخدمة في الزهراء في كل عام بثلثمائة الف دينار مدة خمسة وعشرين عاما (٤)

والزهراء مصنوعة من المرمر الخالص الابيض والاخضر والوردى والمجزع الذى حمل الى قرطبه من سائر انحاء العالم . واحواضها منقوشة بالذهب الغريب الشكل الغالي القيمة ، وفيها حوض صغير اخضر منقوش بتماثيل الانسان جلب من الشام وقيل لا قيمة له لفرط غرابته وجماله ، وقد نصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثني عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبه وقد نصب عليه صورة اسد والى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان ، وعقاب وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ، ودجاجة وديك وصداة ونسر ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من افواهها وكان المتولي لهذا البنيان ابنه الحكم لان الناصر لم يتكل على احد غيره (٥) وللزهراء وابنيتها مقام سام عند الشعراء الاندلسيين ، والآن بقي علينا ان نقول كلمة في " قصر الخلافة " بالزهراء الذى هو ايضا اية من ايات الفن والابداع . فقد كان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه ، الصافي لونه ، المتلونة اجناسه وقد عملت حيطانه على هذا الشكل وجعلت في وسطه اليتيمة التي اهداها اليه ملك القسطنطينية . وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة كما اقيم في وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، واقيم على كل جانب من جوانب المجلس ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب واصناف الجوهر قامت على سوار من الرخام الملون والبلور

---

(١) المقرى المجلد الاول الجزء الاول الرابع ٢٧٩
(٢) " " " " الخامس ٥٩
(٣) " " " " " ٥٩
(٤) " " " " " ٦٢
(٥) " " " " " ٦٤

الصافي وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيحدث من جراء ذلك نور يخطف الابصار وكان الناصر اذا اراد ان يفزع احدا من اهل مجلسه اومأ الى احد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور فيأخذ بمجامع القلوب حتى ليخيل لكل من في المجلس ان المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك (١) " وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناؤه في الجاهلية ولا في الاسلام وانما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم . وكان بناء الزاهرة في غاية الاتقان والحسن ، وبها من المرمر والذهب والعمد كثير . واجرى فيها المياه واحدق بها البساتين (٢)

هذه نظرة عامة خاطفة للتقدم العمراني في البلاد الاندلسية لم نر الاستغناء عنها لما لها من اثرهام في شعر الطبيعة في الاندلسي .

---

(١) المقرى المجلد الاول الجزء الرابع ٢٨٢

(٢) " " " " " ٢٨٢

الفصل الثاني

الطبيعة في الشعر الاندلسي

نظرة عامة في الشعر الاندلسي

رأينا في الفصل السابق كيف دخل العرب الى الاندلس ووطدوا حكمهم فيها ونرى في هذا الفصل ان هؤلاء العرب الفاتحين جاءوا بشعرهم وادبهم ولغتهم من المشرق فساعدهم ذلك على ايجاد نهضة ادبية خاصة نمت وترعرعت على مر الزمن - ولا يستطيع المؤرخ ان يتجاهل هذه النهضة الادبية الخاصة وان جاءت في كثرتها الساحقة متأثرة بخطى الشعر المشرقي كما سنرى .

لقد طرق الشعر الاندلسي في موضوعاته جميع الابواب التي طرقها شعر المشارقة في بغداد والشام فاشتهر في المدح ابن هاني ، وابن عبد ربه ، واحمد ابن شهيد ، وابن زيدون وابن حمديس ، وابن الحداد ، وابن عبدون ، وابن الخطيب وابن زمرك .

وفي الرثاء : ابن اللبان ، وابن عبدون ، وابو البقاء الرندى وفي التشكي وذم الدهر ، المعتمد بن عباد ، وابن اللبان .

وفي الهجاء : ابو بكر المخزومي الاعمى شاعر غرناطة - وولادة بنت المستكفي وكان هذا الفن ضعيفا في الاندلس .

وفي الفخر والحماسة ابن وهبون ونفر قليل غيره لا يعتد بهم لانهم لم يكونوا مشهورين .

وفي الحكم ابن هاني وابن زيدون وابن وهبون . وفي الوصف اكثر الشعراء الذين تقدم ذكرهم وقد اجادوا في هذا اللون الشعرى حتى انهم فاقوا المشارقة في كثير منه .

وفي الغزل : ابوعامر ابن شهيد ، والرمادى والرفاء وابن الحداد وابن خفاجه وابن زيدون .

وفي الطبيعة والعمران نبغ شعراء كثيرون سناتي على ذكرهم بشيء من التفصيل فيما بعد .

وهكذا نرى ان شعراء الاندلس طرقوا جميع الابواب الشعرية التي عرفها قبلهم شعراء المشرق، فهم لم يجددوا من هذه الناحية ولم يتناولوا مواضيع جديدة مبتكرة لم يطرقها قبلهم المشارقة ويمكننا ان نطمئن الى القول بانهم كانوا مقلدين لشعر المشرق في جميع الموضوعات الا في الموشحات والازجال . واذا كان هناك من اختلاف بين شعرهم وشعر المشرق ففي الصور والمزايا الفنية الأدبية لا في الجوهر ولا في الموضوع ، واليك اهم المزايا الفنية في شعرهم :

يلاحظ اولا ان هذا الشعر الاندلسي ينسج على منوال الشعر المشرقي في موضوعاته وفي اساليبه . فجميع هذه المواضيع المذكورة عرفها المشارقة وطرقوها في اشعارهم قبل ان تصل الى الاندلسيين ، واذا كان هنالك باب جديد في الشعر لم يعرفه المشارقة معرفة صحيحة

نهوباب الموشحات والازجال .

لم تختلف مزايا الشعر الاندلسي عنها في الشعر المشرقي اختلافا بينا فهم يلازمون الاسلوب القديم من حيث الاستهلال ، وحسن التخلص والتزام الغزل في قصائدهم المدحية .

ولقد تناولوا في اوصافهم ما تناوله قبلهم المشارقة من فلاة ونياق ووادى والراعى . وفي مدحهم بعض التملق والاستعطاف كما هي الحال في كثير من شعر الشرق

وما نقوله في الشعر المدحي نقوله في غيره من الالوان الشعرية ، فشعرهم الرثائي ينسج على المنوال والاسلوب الذى نسج عليه المشارقة ولكننا نلاحظ ان الاندلسيين عنوا برثاء المدن والبلدان وذكر الاحداث التي نزلت بالام الخالية فاباد تها وقوضت عروش اسيادها . وبهذا قد يخرجون عن الاسلوب المشرقي . نذكر كمثال على هذا نونية الرندى ودالية ابن اللبان وفيهما يرثي دولة بني عباد .

وغزلهم يختلف بين الغزل البدوى والغزل الحضرى وفيه كثير من التقليد والتكلف والفحش والمجون . اما موضوعاتهم الغزلية التي وضعوها فلا تخرج عما عرفه المشارقة . فلقد وصفوا اعضاء الجسم عضوا عضوا واكثروا من التشابيه المالوفة المعروفة يتذللوا امام الحبيب وتعبدوا له وعظموه واجلوه .

والشعر الاندلسي سواء كان في المدح اوفي الغزل في الرثاء او في الخمر والمجون تسيطر عليه ميزة الرقة والطلاوة التى لا نلمسلها اثرا في الشعر المشرقي .

وهذه الطلاوة وهذه الرقة تبدو في الالفاظ وفي المعاني . وعبثا نحاول ان نفتش عن معنى مبتكر طرقه الاندلسيون لم يعرفه المشارقة قبلهم . بل عبثا نفتش عن معنى عميق ، غريب في شعرهم كما هي الحال في معاني ابي تمام والمتنبي مثلا .

ولا بد لنا ونحن نذكر مزايا الشعر الاندلسي ، ونقارن بينه وبين الشعر المشرقي من القول ان اولي الشان في الاندلس من امراء وخلفاء ، وحكام وسلاطين كانوا معجبين بالشعر والشعراء اعجابا كبيرا ، يقربونهم اليهم ويغدقون لهم الاعطيات والهبات كما كانت الحال في المشرق ، مما عزز الادب والشعر وكان الباعث على انتعاشهما وتقدمهما .

لم تكن لغة الاندلسيين في شعرهم محكمة كلغة المشارقة وذلك لابتعادهم عن الوطن الام ولاحتكاكهم بشعوب جديدة اجنبية عنهم ، خاصة وان الجيل العربي الجديد الذى نشأ في الاندلس لم يكن عربيا خالصا فنظم شعراؤه الشعر بلغة عربية غير صافية .

هذه بعض المزايا الهامة في الشعر الاندلسي ذكرتها وانا عامدة الا اطيل البحث فيها واضرب الامثلة عليها خوفا من الاطالة والخروج عن المطلوب لا سيما وان البحث يجب ان يكون في شعر الطبيعة في الاندلس مما سنراه مفصلا في الباب الاتي .

٢ ـ شعراء الطبيعة في الاندلـــس

قال الاندلسيون الشعر في مواضيع شتى ونظموه في ابواب مختلفة كما تبين ولكن اذا شئت ان تلمس ابداعهم وبراعة وصفهم ، ودقة تصويرهم ورقة احساسهم ، وشدة افتتانهم وحلاوة معانيهم وخصب خيالهم فاسمعهم في ذكر بلادهم الجميلة ووصف مفاتنها ، اسمعهم يصفون اطيارها واشجارها ، جداولها وانهارها ، نجومها واقمارها ، غيومها وامطارها ، قصورها وحدائقها ، بركها ودوالقها صورها وتماثيلها نقوشها وما الى ذلك من اسباب عمرانها .

وما كان شعرهم الا الوانا متمازجة انيقة من خضرة الاشجار وحمرة الاثمار ، وبياض الحباب ، وصفرة الشمس ، وذهب الاصيل ولجين الماء وزرقة السماء .

وما كان شعرهم الا موسيقى عذبة لنشيد المغني ، ووقع الرباب ، وهديل الحمام ، ورنين المكاء وخرير الماء .

وما كان شعرهم الا نسيم الروضة الفيحاء ، واريج الازهار البيضاء ، وعبق الورود الحمراء .

وما كانت طبيعتهم الا طبيعة القضب المائسة والطير الساجعة والارض الناعــــمــــة .

كان للطبيعة في نفس الشاعر الرقيق المرهف الحس اثر ، وكان للطبيعة في شعره ظل ، وكان للطبيعة في جميع اغراضه التي قال فيها الشعر والابواب التي طرقها ذكر . فالطبيعة الفه الحميم وتوأم روحه ، كيف لا وهي مهبط وحيه . فالى ظلالها يسكن وبين محاسنها يهيم ، وبين مباهجها يقضي اعذب اوقاته مع الحبيب او في ارتشاف الخمر .

ولذلك فللطبيعة ذكريات في قلبه وللطبيعة انطباعات في حسه ، ولذلك فهو يذكرها دائما ويظل يلتفت الى ماضي اوقاته بين احضانها بحنين عذب وكم يتمنى لو تعود تلك الايام ثانيه .

فلا غروان يكون اذا للطبيعة في نفسه مكان رفيع ولا غروان يظل الاندلس ذلك الصقع الجميل الذي له الطف اثر واجمل وقع في نفوس ابنائه ماثلا لاعين الاندلسي اينما حل واينما سار فهي قبلته وكعبته ، فاليها يحن واليها يتشوق ، وحبها في دمائه يجرى حارا فحالها فوق كل جمال وعمرانها دونه كل عمران . ويظهر ذلك جليا في ابيات ابن خفاجـه المشهور :

يا اهل اندلس لله دركم ماء وظل وانهار واشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تختشوا بعد ذا ان تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار (١)

ولكي يسهل علينا البحث ويتضح امام القارئ نيأخذ منه صورة جلية واضحة نقسم شعر الطبيعة في الاندلس الى عناصر مختلفة تناولها الشعراء لوصفوها عنصرا عنصرا اهمها ما يلي :

١ ـ الخضراء

ا . الرياض والحدائق

١ ـ الورود والرياحين

٢ ـ غراس الفاكهة وسواها

ب ـ المنتزهات

٢ ـ الماء

ا . الجداول والغدران

ب . البحيرات والبحار

ج . الاحواض والنواعير

٣ ـ الجبال والاودية

ا . الجبال

ب . الاودية

٤ ـ في الطير والحيوان والهوام

الخـــضـــــراء

١ ـ الريــاض والحـــدائق

ما جنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت اختار (١)

نعم لقد كانت الاندلس في ذلك الحين جنة الله في ارضه ، فلقد حباها الله بالقسط الاوفر من اعتدال مناخ ورقة هواء ولطافة جو . تسقاها الغمام من دموعه في اكثر ايام السنة فتفجرت ارضها بالارض الفياضة والجداول الرقراقة والينابيع الفائرة ، والعيون الناضحة وانسابت الوديان تشق طريقها لا مبالية تاركة وراءها سهولا ربا حيث نبتت الاعشاب والازهار وامتدت البساتين والرياحين فاصبحت تلك البقاع وكانها حديقة واحدة واسعة الارجاء تعبق فيها مختلف الازهار وتنتصب فيها اشجار ندية الاغصان .

وقال بعض الادباء في ذلك ان النصارى حرموا جنة الآخرة . فاعطاهم الله جنة الدنيا بستانا متصلا من البحر المحيط بالاندلس الى خليج القسطنطنية " (٢)

ولم يكتف اهلها بهذا القسط من الجمال الطبيعي بل عملت يد الانسان في التنسيق والتنظيم وتسابق الامراء والخلفاء في هذا المضمار فاقاموا الجسور وشيدوا القصور وبنوا المدن وخططوا الرياض والبساتين وغرسوا بها الاشجار والازهار والرياحين واسالوا مياه الانهار والجداول ، واقاموا البرك الجميلة والبحيرات الواسعة كما فعل عبد الرحمن الداخل (٣) الذى بنى القصور الفخمة وعلى راسها قصر الرصافة ، ودق الجنان الواسعة ونقل اليها غرائب واكارم الشجر من كل ناحية واصبحت حديقة الرصافة انموذجا في كافة ممالك اوروبا ، اذ كانت تزخر بالزهور النادرة والاشجار الوارفة التي كانت تجلب اليها من سائر انحاء العالم ، واصبحت الوديان ملأى بالاحراج النضرة الكثيفة وامتلأت مدن الاندلس بالدور الجميلة والقصور الانيقة المنيفة تحيق بها الحدائق المسوجة بامراش الزاخرة باشجار الفاكهة كالبرتقال والليمون والطرنج والآس واللوز والخمائل الناضرة ذات الشذى المعطرى ، وانسابت فيها الغدران الصافية ، وقد سطت الشوارع النواثير والفوارات الجميلة التى انبثقت منها المياه على اشكال مختلفة تبعث في النفس الغبطة والسرور و وطيب الجو هبوب النسيم المعطر بشذى الورد والرياحين فانعش القلب واحيا النفوس .

---

(١) ابن خفاجه الديوان

(٢) النفح المجلد الاول الجزء الاول الطبعة الجديدة ٢٧٣

(٣) المقرى النفح الطبعة الجديدة الجزء الرابع

اوضاع بديعة وبساتين رائقة وجنات لا نظير لها في اعتدال الهواء وعذوبة الماء
هكذا : اصبحت الاندلس في ايام استتب فيها الامن على يد العرب الفاتحين فتعددت خيراتها ودنت قطوفها . ومما يدل على شدة اعتناء العرب بتحسين الاندلس وترقيتها ما قاله ابن سعيد " ومما اختصت به الاندلس ان نراها في نهاية من الجنان لتصنع اهلها في اوضاعها وتبيضها لئلا تنبوا العيون عنها (١) " فهي كما قال الوزير ابن الحماره فيها

لاحت قراها بين خضرة ايكها   كالدر بين زبرجد مكنون (٢)

واليك ما جاء في الاحاطة في وصف غرناطة وحدائقها وبساتينها . " فالجبال الشاهقة والسفوح العريضة والبطون الممتدة والاغوار الخافتة مكللة بالاعناب غاصة بالادواح متزاحمة بالبيوت والابراج (٣) . وتركب ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث الكروم البديعة طوقا مرقوما يتصل بما وراءها من الجبال فتعم الربا والوهاد وتشمل الغور والنجد الا ما اختص منها بالسهل الانيح متصلا بشرقي باب البيرة الى الخندق العميق . وكان يتخلل المباني الشالاّ والزيتون وسائر ادوات الفواكه من اللوز والاجاص والكمثرى محدقة بالكروم المسيجة والرياض الملتفة ببحور طامية كثيرة المياه . ففيها الكثير من البساتين والرياض والحصون والاملاك المتصلة (٤) . "

وتحف بغرناطة البساتين العريضة والادواح الملتفة فيصير سورها من خلف ذلك كانه من دون سياج :

بلد تحف به الرياض كأنه   وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة   ومن الجسور المحكمات سواره (٥)

وهكذا قل في قرطبة واشبيلية وغيرها من المدن الاندلسيين الجميلة .

وهكذا الادباء والشعراء وجدوا المجال واسعا امامهم فانبثقت مواهبهم و وفاضت قرائحهم بغذيها الجمال الخلاب ، ويمنحها السحر الحلال واصبحت هذه الحدائق وهذه الجنات شغلهم الشاغل فهم اذا ما مدحوا شبهوا ممدوحيهم بالروضة الغناء يهب فيها النسيم العليل . فها ابن خفاجه يمدح قاضي القضاة قائلا :

يا نشر عرف الروضة الغناء   ونسيم ظل السرحة الغيناء
هذا يهب مع الاصيل عن الربا   ارجا وذلك من غدير الماء
موجا على قاضي القضاة غدية   في نشي زهر او حلى انداء (٦)

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الثاني الطبعة الجديدة ٧٦
(٢) " " " " " ٧٦
(٣) الاحاطة في اخبار غرناطة القسم الاول ٣٠   (٤) الاحاطة في اخبار غرناطة القسم الاول ٢٧
(٥) " " " " ٢٤   (٦) ديوان ابن خفاجه ١١

وقال في مكان آخر يمدح ايضا :

اما والتفات الروض عن ازرق النهر ... واشراق جيد الغصن في حلية الزهر
وقد نسمت ريح الندامى فنبهت ... عيون الندامى تحت ريحانة الفجر (١)

وقال ابن عمار يمدح المعتضد في رائيته المشهورة :

روض كان النهر فيه معصم ... صاف اطل على رداء اخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله ... سيف ابن عباد يبدد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه ... والجو قد لبس الرداء الاغبرا
اندى على الاكباد من قطر الندى ... والذ في الاجفان من سنة الكرى (٢)

واذا ما تغزلوا صاغوا من الورد خدودا ومن النرجس عيونا ومن الاس اصداغا ومن السفرجل نهودا ومن قصب السكر قدودا ، ومن قلوب الجوز وسرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رضابا (٣)

وليل بعين الدمع وصلا قطعته ... وانجمه بين النجوم سعود
ترى الحسن منشور اللواء يسره ... وظل الاماني في رباه مديد
فبتنا ومن ورد الخدود ازاهر ... لدينا ومن روض الرياض خدود
وتفاحنا وسط الرياض مورد ... ورماننا وسط الرياض نهود (٤)

وقال آخر :

لولا حيائي من عيون النرجس ... للثمت خد الورد بين السندس
ورشفت من ثغر الاقاحة ريقها ... وضممت اعطاف الغصون الميس
وهتكت استار الوقار ولم اقل ... للعاقلا تلحظ بطرف اشوس (٥)

واكثروا من تشبيه الحبيب بانواع الرياحين والرياض والبساتين وربما غالوا في ذلك حتى يجعلوا من محبوبهم روضة مختلفة الازهار والالوان من ذلك قول ابن خفاجه :

تندى بفيه اقحوانة اجرع ... قد غازلتها الشمس غب سماء
وتميس في اثوابه ريحانة ... كرعن على ظمأ بجدول ماء
تفاحة الانفاس الا انها ... حذر النوى خفاقة الاحشاء (٦)

وفي هذا المعنى قول احد الاندلسيين :

صبوا الصباح فقسموه خدودا ... واستوهبوا قضب الاراك قدودا
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم ... فتقلدوا شهب النجوم عقودا
لم يكفهم حد الاسنة والظبى ... حتى استعاروا اعينا وخدودا

---

(١) ديوان ابن خفاجه ١١ (٢) ~~ديوان ابن خفاجه ٤٩~~
نفح الطيب المجلد الخامس الطبعة الجديدة ٢٠٨
(٣) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢١٠ (٤) الاحاطة القسم الاول ٢٩
(٦) ديوان ابن خفاجه (٥) " " " ١٢٠

وتثير الطبيعة في نفس ابن زيدون شاعر الحب والجمال معاني الهوى ، وتحرك لواعجه ويرى الهوى في طلوع النجوم ، والمنى في هبوب النسيم .

الهوى في طلوع تلك النجـوم والمنى في هبوب ذلك النسيم (١)

فالطبيعة والحبيب في نظر ابن زيدون متشابهان فغرته تذكر بالشمس وانفاسه بالرياحين

شخص يذكرني فاه وغرته شـمس النهار وانفاسـه الرياحين (٢)

والحبيب عنده شمس تطلع من نقاب ، بل غصن بان يرفل في وشاح :

رايت الشمس تطلع من نقاب وغصن البان يرفل في وشاح (٣)

بل ان الحبيب لاجمل من البدر وابهى ولوانه بات عنده لما تطلع الى بدر السماء

يا ليل طل ، لا اشتهى الا بوصل قصرك

لو بات عندى قمرى ما بت ارعى قمرك (٤)

ومن ابدع واروع ما قيل في فتنة الطبيعة في ظلال الحب قوله يتشوق الى حبيبته ولادة ابنة المستكفي :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقـا والافق طلق ومرأى الارض قد راقا

وللنسيم اعتلال في اصائله كانه رق لي فاعتل اشفاقـــا

والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات اطواقا

يوم كايام لذات لـنا انصرمت بتنا بها حين نام الدهـــر سراقا

نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال اعناقه

كان اعينه اذ عاينت ارقـــي بكت لما بي فجال الدمع رقـراقـا

ورد تالق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين اشراقا

سرى ينافحه نيلوفل عبـق وسنان نبه منه الصبح احداقـــا

كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقـا (٥)

وكانوا اذا رثوا وصفوا الروض منتحبا على المرثي ، كما تجرى جداول الماء على الخدود حزنا عليه ويهتز الناس هزة الاغصان بكاء على المصاب . وقال ابن خفاجه يرثي الوزير ابا احمد عبد الله بن ربيعة

في كل ناد روض ثنـاء وبكل خد فيك جندل ماء

ولكل شخص هزة الغصن الندى غب البكاء ورنة المكـاء (٦)

---

(١) ديوان ابن زيدون ٥٠ (٢) ديوان ابن زيدون ١٠٩

(٣) « « « ٢٦١ (٤) « « « ٢٧٢

(٥) « « « ٢٥٧ (٦) « « خفاجه ١٣

ومنهـــا :

فلطالما كنا نريح بظله ... فنريح منه بسرحة غناء
نفثت على حكم البشاشة نورها ... وتنفست في اوجه الجلساء
تتفرج الغمامة عنه كانه ... قمر تمزق شمله الظلماء (١)

ويظهر ان الطبيعة اصبحت تشارك الاندلسي افراحه واحزانه فاذا حزن شعر انها يجب ان تشاركه همومه واحزانه وقد يبكي الشاعر بحزن اليم يصيب منه الفؤاد فيطلب من الطبيعة ان تواسيه وان تهطل السحب دموعا .

الم يان ان يبكي الغمام على مثلي ... ويطلب ثارى البرق منصلت النصل
وهلا اقامت انجم الليل ماتما ... لتندب في الافاق ما ضاع من مثلي (٢)

وهنا يطلب شاعرنا في حالة بؤسه ان يبقى مع الآسي والقواني

الا خليلاي والاس والقوانيا ... اردد ها شجوى واجهش باكيا (٣)

ومنها وهو يخاطب الماء ويستجده .

يا برد هذا الماء هل منك قطرة ... فهل فيستسقي غمامك هاديا
وقف حيث سال النهر ينساب ارقما ... وهب نسيم الايك ينفث راقيا
وقل لا ثيلا هناك واجدع ... سقيت اثيلات وحييت واديا (٤)

وان لفي هذه المناجاة وهي تصدر عن قلب شاعر متالم حساس لوعة صادقة تحمل القارئ على مشاركته شعوره .

واذا ما جلسوا في مجلس انس او طرب لم ينسوا ما كانت تهيئه لهم طبيعتهم الجذابة من جو جميل مفرح تزقزق فيه الاطيار وتسيل فيه المياه وتطيب فيه الاثمار

وفي بنا نحو عين الدمع نشربها ... حيث السرور بكاس الانس يسقينا
حيث الهنا وفنون اللهو رائعة ... والطير من طرب فيها تناجينا
وجدول الماء يحكي في اجنته ... صوارما جردت في يوم صفينا (٥)
واعين الزهر في الاغصان جاحظة ... كانها اعين الغزلان تغرسنا

وتصبح الطبيعة وقد ثملوا بلذة الخمرة في نظرهم كغادة مغرية فلا يستطيعون تفاديها فياخذون بمغازلتها وخصها بقسم وافر من شعرهم .

ادرها فالسماء بدت عروسا ... مضخمة الملابس بالغوالي
وخد الارض خفره اصيل ... وجفن النهر كحل بالظلال

(١) ديوان ابن خفاجه ١٤
(٢) ديوان ابن زيدون ١١٢
(٣) المطمح ا جزء الثالث ٨٥
(٤) المطمح الجزء الثالث ٨٥
(٥) الاحاطة القسم الاول ٣٠

وجيد الغصن يشرب في لآل ... تضيء بهن اكتاف الليالي (١)

وقال ابو بكر محمد بن نصر الاشبلي وقد بدت الطبيعة كالعروس

وكانما تلك الرياض عرائس ... ملبوسهن معصفر ومزعفر

اوكالقيان لبسن موشي الحلى ... فلهن في وشي اللباس تبختر (٢)

وهكذا نرى ان الطبيعة لدى الاندلسي تتقبل جميع الصور وتتقمص جميع الاشكال ، فان مدح حول ممدوحه الى رياض وازهار واقمار وشموس ، واذا تغزل انسابت في القصيدة كالماء الزلال ، واذا رثى تحولت الى دموع حارة تذرف على الفقيد .

ومثل هذا الشعر كثير جدا عند الاندلسيين ولكنه على كثرته لم تتنوع صوره ولم تتعدد مناحيه ولم يتعمق الشعراء في ابتكار معانيه حتى انهم لم يختلفوا كثيرا بعضهم عن بعض في انواع الاستعارات والتشابيه والتحسينات اللفظية فالمعاني الواحدة تتكرر وتتردد في عدة قصائد لشعراء مختلفين بالفاظ واحدة وتعابير واحدة كما سنرى في الصفحات المقبلة . اذ لم يكن الشاعر الاندلسي وهو يصف الرياض والبساتين الا كالرسام البارع الذى توفرت لديه المناظر البهجة ولكنه على توفرها وجمال الوانها لم يستطع ان ينقلها لنا الا كما التقطتها ريشته فلم يتمكن من ان يسكب فيها روحا من روحه او ان يلونها بريشته مغموسة بدم قلبه . بل كان شاعرنا يخرج الى الطبيعة مع رفاقه يهيم بجمالها ويتمتع بسحرها ثم يقف امام مذهباً لينقل الى الناس مشاهداته ومغامراته وما تركته الطبيعة في نفسه من اثر وشعور يصدران من الحس والمشاهدة ، فكان الشاعر يقرأ من سفر الطبيعة كما تراءت له لا اكثر ولا اقل ، ولم يكن هذا بالشيء العسير فقد توفرت لديه المناظر كما رأينا وزخرت لغته بالاسماء والاوصاف لشتى مظاهر الطبيعة واثارها وما لانهارها واوقاتها فما كان منه الا ان ينقلها الينا بقالب شعرى لطيف . ولهذا نرى ان هذا الشعر اتسم بالفتور واصطبغ بالصنعة وهيمنت عليه مسحة التكلف والتطرق ، ولعل ذلك يرجع الى ان شاعرنا لم يخرج الى الطبيعة يتاملها لاجلها وحدها ويستجلي محاسنها وان يحاول النفاذ الى معانيها واستكشاف اسرارها وغوامضها بل كان هنالك دوافع عديدة خارجية تدفعه الى وصفها والتغني بمحاسنها من اهمها :

(١) تهافت الشعراء وتزاحمهم على عطايا الامراء والخلفاء وتقديم شعرهم على هؤلاء الملوك لمآربهم الخاصة والعامة ، فكثيرا ما كان الشاعر لا يقول الشعر الا بناء على طلب اميره في مدحه ووصفه ووصف قصوره ومبانيه وحدائقه وما حوت من الغرائب والنوادر . وكثيرا ما كان يخرج الامراء والقواد الى رياضهم ومنتزهاتهم ومعهم الشعراء للغاية نفسها فلا غرو اذا ان ينقص الشعر حرارة الايمان ، وحرارة الشغف بالطبيعة نفسها .

---

(١) الاحاطة القسم الاول ص ١١٢ (٢) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٨٤

قال ابو عبد الله بن السيد البطليوسي يصف متنزها انه مع المامون بن ذى النون "حضرت مع المامون بن ذى النون في مجلس الناعورة بالمنية التي تطمح اليها المنى ومرآها هو المقترح والمتمنى ، والمأمون قد احتبى وانامر الحبا والمجلس يروق كان الشمس في افقه والبدر كالتاج في مفرقه والنور عبق ، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق ، والدولاب يئن كناقة اثر الحوار او كثكلى من حر الاوار والجو قد عنبرته انواءه ، والروض قد رشته انداؤه ، والاسد قد نغرت افواهها ، ومجت امواهها فقلت (١) :

يا منظرا ان نظرت بهجته	اذكرني حسن جنة الخلد
تربة مسك وجو عنبـــرة	وغيم ند وطش مـــاورد
والماء كاللازورد قـد نظمـت	منه اللآلي فواغر الاســد
كانما جائل الحباب بـــه	يلعب في جانبيه بالنـــرد
تراه يزهو اذ يحل بـه ال ـــ	مأمون زهو الفتاة بالعــقد
تخاله ان بدا بـه قـــمرا	تما بدا في مطالع السعــد
كانما البست حدائقـــه	ما حاز من شيمة ومن مجـد
كانما جادها فروضــهـا	بوابل من يمينـه رغـد (٢)

ان التصنع في وصف الطبيعة لجلي ظاهر في هذه المقطوعة وما وصفها الا ليخرج الى المأمون فيصف مجلسه ثم يتوصل الى مدحه كما ان تربة المسك وجو العنبر ، وغيم الند ومطر ماء الورد ولازورد الماء كلها تعابير تكررت في الشعر الاندلسي حتى ملت .

ولم يختلف ابو الفضل عن زميله البطليوسي في وصف احدى نزه المستعين ، "وركب المستعين بالله يوما مهر سرقسطه يريد طراد لذاته وارتياد نزهته وانتقاد احد حصونه المنتظمة بلبته واجتمع له من اصحابه من اختصه لاستصحابه وفيهم ابو الفضل شاهدا لانقراضهم ، سالكا لمنهاجهم والمستعين قد احضر من الات ايناسه ، واظهر من انواع ذلك واجناسه ، ما راق من حضر ووافق حسن الروض الانضر والزوارق قد حفت به والتفت بجوانبه ونغمات الاوتار تحبس اسائر عن عدوه وتخرس الطائر المفصح بشدوه ، والسمك تثيرها المكايد ، وتغوص اليها المصايد فتبرز منها للمعين قضبان در او سبائك لجين ، والراح لا يطمس لها لمع ولا يبخس منها بصير ولا سمع ، والدهر قد غضت صروفه واشتمس من منكره معروفه" فقـــال :

---

(١) قلائد العقيان ١٩٢ ـــ ١٩٣ النفح المجلد الاول الجزء الخامس الطبعة الجديدة ص ٢٦٥ ـــ ٢٦٦

لله يوم انيق واضح الغرر	مفضض مذهب الاصال والبكر
تسير في زورق حف السفين به	بجانبيه بمنظوم ومنثر
مد الشراع به نشرا على ملك	بذ الاوائل في ايامه الاخــــر
هو الامام الهمام المستعين حوى	علياء مؤتمن في هدى مقتدر
تحوى السفينة منه آية عجبــا	بحرا تجمع حتى صار في نهر
تثار من مقره النينان مصمــدة	صيدا كما ظفر الغواص بالدرر (١)

والامثلة على ذلك كثيرة جدا لا يتسع المقام لذكرها كلها .

(٢)ـ منافسة الشعراء ومناظرتهم بعضهم بعضا في وصف الرياض والبساتين حبا بالمنافسة والمناظرة لا ميلا الى الطبيعة والتغني بها ، كما حدث لصاعد اللغوي وابن العريف النحوى فقد ذكر ابن سعيد "ان دخل ابن العريف النحوى على المنصور بن ابي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي فانشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من ابيات " (٢) :

فالعامرية تزهــى	على جميع المبانــي
وانت فيها كسيـف	قد حل في غمدانى (٣)

فقام صاعد وكان مناقضا له فقال ، اسعد الله تعالى الحاجب الاجل ومكن سلطانه ، هذا الشعر الذى قد اعده وروى فيه اقدر ان اقول احسن منه ارتجالا فقال له المنصور قل ليظهر صدق دعواك فجعل يقول من غير فكرة طويلة (٤) من ابيات منها يصف العامرية :

انظر الى النهر فيها	ينساب كالثعبـان
والطير يخطب شكرا	على ذرى الاغصان
والقضب يلتف سكرا	بميس القضبــــان
والروض يفتر زهــوا	عن مبسم الاقحوان
والنرجس الغض يرنو	بوجنة النعمـــان
وراحة الريح تمشــا	ز نفحــة الريحـان
فدم مدى الدهر فيها	في غبطة وامان (٥)

٣ ـ كثيرا ما كانت هذه الاوصاف ترتجل ارتجالا دون ان يفكر الشاعر تفكيرا عميقا فياتي بمعاني مبتكرة جديدة . فقد حدث مرة ان اجتمع الوزير ابو جعفر الوقشي ووالد ابن سعيد الاديب المشهور ،

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الخامس الطبعة الجديدة ٢٦٣ ـ ٢٦٤
(٢) " " " " " " ٩٥
(٣) " " " " " " ٩٦
(٤) " " " " " " ٩٦
(٥) " " " ٩٧

فقال والد ابن سعيد يصف يوما " نسبحت امامنا اوز ، وجعلت تمرح وتنثر ما عليها من الماء فوق المرج والمرج قد احدق به الوادى ، والشمس قد مالت عليه للغروب ، فقال لي ابو الحسن ، بالله صف يومنا وحسن هذا المنظر ، فقلت لا اصفه ا و تصفه انت فقال لك مني ذلك ففكر كل منا على انفرا د بعدما ذكرنا ما نصف نثرا فقال ابو الحسن الوقشي :

لله يوم بمرج الخز طاب لنا ... فيه النعيم بحيث الروض والنهر
وللاوز على ارجائه لعب ... اذا جرت بدرت ما بيننا الدرر
والشمس تجنح نحو البين مائلة ... كان عاشقها في الغرب ينتظر
والكاس جائلة باللب جائرة ... وكلنا غفلات الدهر نبتـــدر (١)

قال فقلت :

الا حبذا يوم ظفرنا بطـــيبه ... باكناف مرج الخز والنهر يبسم
وقد مرحت فيه الاوز وارسلت ... على سندس درا به ينتـــظـــم
ومد به للشمس نهر كانه ... لثام بها ملقى من النور معصم
ا درنا عليه بحث بـــه ... بينا عاد وهو يكلـــــــم
غدونا اليه ماشين سكينـــة ... فرحنا وكل بالهوى يترنـــــم (٢)

وكثيرا ما كان يطلب الى الشعراء ارتجال الاشعار في الزهور من ورد وياسمين كما يحدثنا ابو البركات النصيبي وقد احضر من بستاني من الورد والياسمين شي كثير وعملت على سبيل الولع دائرة من الورد تقابلها دائرة من الياسمين فاتفق ان دخل علي شاعران كانا بنصيبين احدهما يعرف بالمهذب والآخر يعرف بالحسن بن البرقعيدى فقلت لهما اصلا في هاتين الدائرتين ، ففكرا ساعة ثم قال المهذب :

يا حسنها دائـــرة ... من ياسمين مشـــرق
والورد قد قابـــلها ... في حلة من شفـــق
كعاشق وحبه ... تغامزا بالحــــدق
فاحمـــر ذا مـــن خجل ... واصفـــر ذا من فـــرق (٣)

وقـــال الآخـــر :

يا حسنها دائـــرة ... من ياسمين كالحـــلي
والورد قد قـــابلـــها ... في حـــلة من خجـــل
كعاشق وحبه ... تغامزا بالمـــقـــل
فاحمر ذا مـــن خجـــل ... واصفر ذا مـــن وجـــل (٤)

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الرابع ١٣٩ (٢) النفح المجلد الاول الجزء الرابع ١٣٩
(٣) " " " " ١٤٠ (٤) " الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٢١
(٥) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٢١

لهذه الاسباب ومثلها الكثير هي التي صبغت الشعر الطبيعي بصفة التصنع والتكلف فجاء في اكثره متشابه الصور والالفاظ وسطحي المعاني بادى الكلفة والتزويق .

وليس لي وقد ذكرت اهم خصائص الشعر الطبيعي الا ان اعرض نماذج مختلفة منه ليستطيع القارى ان يكون له فكرة صادقة عنه وليتحقق من صحة ما ذكرته سابقا كما ولا بد من الاشارة الى ان هذا الشعر وان جاء متشابها في خطوطه الكبرى كما ذكرنا ولكنه بقي يتصف بصفات مميزة تختلف باختلاف قائل هذا الشعر فمنهم من احب الطبيعة في الرياض والبساتين في جميع مظاهرها ، وفي اى حالة كانت . فللروض حسن وجمال وللازهار عبير هو نشر الحبيب وصفرة النرجس هي صفرة وجهه

للروض حسن فقف عليه ... واصرف عنان الهوى اليه
اما ترى نرجسا نضيرا ... يرنو اليه بمقلتيه
نشر حبيبي على رباه ... وصفرتين فوق وجنتيه (١)

والروض سكران من ماء النعيم

والروض يبعث بالنسيم كانه ... اهداه يضرب لاصطباحك موعدا
سكران من ماء النعيم فكلما ... غناه طائره واطرب رددا
يأوى الى زهر كان عيونه ... رقباء تقعد للاحبة مرصدا
زهر يبوح به اخضرار نباته ... كالزهر اسرجها الظلام واوقدا
وبت في فنن توهم ظله ... يمسي ويصبح في القرارة مرودا
قد خف موقعه عليه وربما ... مسح النعيم بمعطفه فتاودا (٢)

وهنا زمرة من الشعراء لا تروق لهم الطبيعة الا وقد اخضرت روابيها وافترت عن ثغور اقاحها وانسابت مياهها الفضية تصفق تارة وتضحك اخرى ، وغنى طيرها على الغصون :

وحديقة مخضرة اثوابها ... في قضبها للطير كل مغرد
والجدول الفضي يضحك ماؤه ... فكانه في العين صفح مهند
واذا تجعد بالنسيم حسبته ... لما تراه مشبها للمبرد
وتناثرت نقط على حافاته ... كالعقد بين مجمع ومبدد
وتدحرجت للناظرين كانها ... در نثير في بساط زبرجد (٣)

---

(١) المطمح الجزء الثالث ٨٠ (٢) قلائد العقيان ١٨٧

(٣) النفح مجلد اول جزء رابع طبعة جديدة ٢٩٦

وهذه لوحة اخرى تشابه اللوحة الاولى غير ان الشاعر زاد فيها بعض الالوان الجميلة

والروض مخضر الربى متجمل ... للناظرين باجمل الالوان
والطير تسجع في الغصون كانما ... نقر القيان حنت على العيدان
والماء مطرد يسيل عبابه ... كسلاسل من فضة وجمان (١)

وتجتذب الالوان المختلفة من اصفر فاقع وابيض واخضر نظم الشاعر الاندلسي فيقول :

راق العيون اديمها فكانه ... روض تفتح عن شقيق بهار
ما بين مبيض واصفر فاقع ... سال اللجين به خلال نضار
يحكي حدائق نرجس في شاهق ... تنساب فيه اراقم الانهار
تحدو قوائم كالجذوع فوقها ... جبل اشم بنوره متواري (٢)

وتقع حبات الندى على يانع الازهار :

وتراءة كالعشر بين خميلة ... سالت تداتيها كالاسطر
فكانها مشكولة بمصندل ... مع يانع الازهار او بمعصفر
امل بلغناه بهضب حديقة ... قد طرزت بيد الغمام الممطر
فكانه والزهر تاج فوقه ... ملك تجلى في بساط اخضر
راق النواظر منه رائق منظر ... يصف النضارة عن جنان الكوثر (٣)

كسى الطل الروض وقامت الريح مصافحة فرقصت خضر الاغصان وغنت ورق الحمام : —

وروض كساه الطل وشيا مجددا ... فاضحى مقيما للنفوس ومقصدا
اذا صافحته الريح خلت غصونه ... رواقص في خضر من القضب ميدا
اذا ما انسكاب الماء عاينت خلته ... وقد كسرته راحة الريح مبردا
وان سكنت عنه حسبت صفاءه ... حساما صقيلا صافي المتن جردا
وغنت به ورق الحمائم بيننا ... غناء ينسيك القريض ومعبدا (٤)

لقد احب الاندلسيون بروئية الرياض وقد انتشر الطل في رباها فاكثروا وصفها في حالاتها المختلفة فهذا شاعر وقد تراءت له روضة جميلة نظمت له ايدي الغمام عقودا وسقتها بماء الورود :

طوبى لروضة جنة ... لك قد نوت ورودها
نظمت على لباتها ... ايدي الغمام عقودها
وسقت بماء الورد والمسك الفتيت صعيدها
والطير تشدو في الغصون الماشدات قصيدها
وتعير سمع المستعير ... نظمها ونشيدها (٥)

(١) قلائد العقيان ٢٠٤ (٢) الاحاطة الجزء الثاني ٢٢٩ (٣) الاحاطة الجزء الثاني ٢٥٤
(٤) النفح المجلد الاول الجزء الخامس الطبعة الجديدة ٣٥٥ (٥) النفح الجزء الثاني ٣٥٠

وتجلت لآخر عروبل والمياه عقودها والقطرات افراحها :

سقى الله ارضا كلما زرت روضها   كساها وحلاها منظر القرط

تجلت عروسا والمياه عقودها   وفي كل قطرة من جوانبها قرط (١)

ولم يغرم الاندلسيون بالغمام وسقوط الندى فقط بل اسرى هذا الحب وهذا الغرام الى الخمائل والازهار التي كانت تتحرق الى ارتشاف ريق الغمام

وخميلة رقم الزمان اديمها   بمفضض ومقسم ومشوب

رشفت قبيل الصبح ريق غمامة   رشف المحب مراشف المحبوب

وتطردت في اكنافها ملك الصبا   وتعدت واستوزرت كل اديب

وادرت فيها الدهر كاس مدامة   مع كل وضاح الجبين مهيب (٢)

ولعل هذا الشغف وهذا الحب للغيث يرجع الى مزاياه الطبيعية ونواياه الحسنة وشعوره الصادق نحو الاخرين من ابناء جنسه ، وما كادت سحابة قاتمة تحجب شمس الضحى حتى بكى الغيث لفقدها

يوم كان سحابه   لبست عامي الصامت

حجبت به شمس الضحى   بمثال اجنحة الفواخت

فالغيث يبكي فقدها   والبرق يضحك مثل شامت

والرعد يخطب مفصحا   والجو كالمحزون ساكت

والروض يسقيه الحيا   والنور ينظر مثل باهت

فاشرب ولذ بجنة   واطرب فان العمر فائت (٣)

ومما يدل على شغف الاندلسي بطبيعة بلاده تعشقه لشجرها وجمالها فهو يرى الكل في رباها جوهرا منثورا ، ويخال الزهر كافورا ويحسب الترب مسكا ازفر ، بل هي جنة راقصة طروب ، فثغور السوسن تقبل خدود الورد والجدول ينسل جذلا مطروبا كالسيف ز الطير يخطب فوق الارائك مسرورة مبهجة

والارض قد لبست رداء اخضرا   والطل ينثر في رباها جوهرا

هاجت فخلت الزهر كافورا بها   وحسبت الترب فيها مسكا ازفرا

وكان سوسنها يصافح وردها   ثغر يقبل منه خدا احمرا

والنهر ما بين الرياض تخاله   سيف تعلق في نجاد اخضرا

وجرت بصفحتها الريا فحسبتها   قفا ينمق في الصحيفة اسطرا

وكانه اذ لاح ناصع فضة   جعلته كف الشمس تبرا اصفرا

والطير قد قامت به خطباؤه   لم تتخذ الا الاراكة منبرا (٤)

---

(١) النفح الجزء الاول الطبعة الازهرية ٣٥٠   (٢) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣١٣

(٣) " " " " ٢٨٤   (٤) ديوان ابن سهيل الاندلسي ٤٠ ــ ٤١

بل ورذاذ بلادهم هو من ماء الورد

ارسل الجو ماء ورد رذاذا	وسع الحزن والدمائث رشا
فانثنى حول اسوق الدوح خجلا	وجرى فوق بردة الروض رقشا
وسعى في الغصون حلى بنانا	اصبحت من كلافة الطل رعشا
فترى الزهر يرقم الارض رقما	وترى الريح تنحش الماء نحشا
فكان المياه سيف صقيل	وكان البطاح عقد موشحـــى (١)

وتبكي السماء في الاندلس لتضحك الزهر

الى اى يوم بعده يرتع الحمر	وللورق تغريد وقد خفق النهر
وقد صقلت كف الغزالة انقها	وفوق متون الروض اردية خضر
وكم قد بكت عين السماء بدمعها	عليها ولو ذاك ما بسم الزهر (٢)

وما فهمهم الا منخل لفضة	يلقي على الآفاق رطب الجوهر
ونظار انس لو سالنا دهرنا	في ان يعود بمثله لم يقدر
في فيئة علمت ذكاء عشيهم	فتلقطت من نجمها في مئزر
والسرحة الغناء قد قبضت بها	كف النسيم على لواء اخضر
فكان شكل الغيم منخل فضة	يلقي على الآفاق رطب الجوهـــر (٣)

وتدور الايام دورتها وتتور الملاقات ويصبح الحبيب عددا ان كان الغمام يبكي لتبتسم الازهار فاذ به معها في خصام يهاجمها بيض البرق وسمر السمر ويرميها بنبل من الماء فما كان من النهر الا ان تدرع تهيئا للهجوم واهتزت فيا الشجر مزمجرة متوعدة :

بين الرياض وبين الجو معترك	بيض من البرق او سمر من السمر
وان اوترت نبلاً قوسها كف السماء رمته	نبلاً من الماء في زعف من الغدر
لاجل ذاك اذا هبت طلائعها	تدرع النهر واهتزت من الشجر (٤)

واجتمع الوزير ابو بكر بن القبطر والاديب ابو العباس بن صارة الاندلسيان في يوم جلا ذهب برقه واذاب ورق ورقه والارض قد ضحكت لتجهم السماء واهتزت وربت عند نزول الماء فقال ابن

---

(١) الاحاطة الجزء الاول ١٢٣ (٢) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٨٠

(٣) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٧٣ (٤)

(٤) " " " " " ٣٦٨

القيطرنة :

هذه البسيطة كاعب ابرازها　　حلل الربيع وحليها النوار (١)

فقال ابن صارة :

وكأن هذا الجو فيها عاشق　　قد شفه التعذيب والاضرار (٢)

فقال ابن القيطرنة :

واذا شكا فالبرق قلب خافق　　واذا بكى فدموعه الامطار (٣)

فاجابه ابن صارة :

من اجل ذلة ذا وعزة هذه　　يبكي الغمام وتضحك الازهار (٤)

وما اجمل الطبيعة حين يحنو بعضها على بعض فينام النبت في احضان النسائم على اهتزاز الطل في مهد الخزامى ويسقي السحاب الاغصان فتحنى لتلثم افواه الندامى ، ويكحل الفجر لهم اجفان الدجى ، ولعل ابلغ ما قيل في هذا الباب قول يحي ابن هذيل احد اعيان الاندلس :

نام طفل النبت في حجر النعامى　　لاهتزاز الطل في مهد الخزامى

وسقى الوسمي اغصان النقا　　فهوت تلثم افواه الندامى

كحل الفجر لهم جفن الدجى　　وغدا في وجنة الصبح لثاما

تحسب البدر محيا ثملا　　قد سقته راحة الصبح مداما

حوله الزهر كؤوس قد غدت　　مسكة الليل عليهن ختاما (٥)

وتضوع النسيم وضحك الازهار وبكاء الغمام وتصفيق النهر ورقص الاغصان وغناء الطير من المعاني المكررة المألوفة عند شعراء الاندلس :

طفل الماء وللنسيم تضوع　　والانس ينظم شملنا ويجمع

والزهر يضحك من بكاء غمامة　　ريعت تشيم سيوف برق تلمع

والنهر من طرب يصفق موجه　　والغصن يرقص والحمامة تسجع (٦)

وانظر الى الشاعر كيف يستعير الفاظه وتشابيهه من اللجين والفضة والنضار والذهب والدرر والجوهر والدراهم والدنانير ليصف الطبيعة :

اذن الغمام بديمة وعقار　　فامزج لجينا منهما بنضار

واربع على حكم الربيع باجرع　　هزج الندى من مفصح الاطيار

نثرت بحجر الروض فيها يد الصبا　　درر الندى ودراهم الانوار

وهفت بتغريد هنالك ايكة　　خفاقة بمهب ريح عرار (٧)

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٢١　　(٢) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٢١

(٣) " " " " ٢٢٢　　(٤) " " " " " ٢٢٢

(٥) " " " " ٢٢٣　　(٦) الاحاطة الجزء الثاني ٢٥٥

(٧) ديوان ابن خفاجة ٧٣

وفي هذا النحو قول احد الشعراء :

عرج بمنعرج الكثيب الاعفر ... بين الفرات وبين شطنيف الكوثر

ومنهـــا : و الطير تشدو والاراكة تنثني ... والشمس ترفل في قميص اصفر

والروض بين مذهب ومفضض ... والزهر بين مدرهم ومدنر

وكانه وكان خضرة شطه ... سيف يسل على بساط اخضر

وكان ذاك الحباب فرندة ... مهما طفا في صفحة كالجوهر

نهر يهيم بحسنه من لم يهم ... ويجيد فيه الشعر من لم يشعر (١)

ويعتقد الشاعر ان الطبيعة تستمتع بجمال بعضها بعض وما صفرة الشمس الا من الم فراق الرياض وما حوته من مناظر جميلة .

ما اصفر وجه الشمس عند غروبها ... الا لفرقة حسن ذاك المنظر (٢)

ويعود هذا الشاعر يصف المكان نفسه مرة اخرى فيقول :

ارأت جفونك مثله من منظر ... ظل وشمس مثل خد معــذر

وجداول كاراقم حصباؤها ... كبطونها وحبابها كالاظـــفر (٣)

والطير المغرد على الاغصان ولسان البرق الذى يشبه الرداء المذهب من الفاظ كثيرة ما يستعملها شعراء الطبيعة في شعرهم

وروض كان الغصن يزهى فينثني ... به وكان الطير يشقى فيطـرب

قد ارتجز الرعد المزن باثقه ... فاملى وجالت راحة البرق تكتـب

كان لسان البرق فيه عشية ... لواء خضيب او رداء مذهــب (٤)

ولابن خفاجه ايضا :

ومائسة تزهى وقد طلع الحيا ... عليها حلى حمراء واردية خضرا

يذوب لها ريق الغمامة فضة ... وتجمد في اعطافها ذهبا نضرا (٥)

ولا تروق الطبيعة لشاعر من الشعراء الا في الصباح الباكر وقد كاد الليل ان ينقشع وسفر الصبح من جيش النهار ، وقد امتلأ الريف بالازهار التى قد انتشرت كالدراهم وسقط الندا كالدرر فوق النوار والريح تتنفس باكرا تمرح الربى والطل ينضح الاشجار

وكمامة حطر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الازهار

في ابطح رضعت ثغور اقاحة ... اخلاف كل غمامة مدرار

---

(١) الاحاطة الجزء الثاني ٢٥٣ (٤) ديوان ابن خفاجه ٣٥

(٢) " " " ٢٥٣ (٥) " " " ٣٥

(٣) " " " ٢٥٣

نشرت بحجر الارض فيه يد الصبا ... درر الندى ودراهم النوار
وقد ارتوى غصن النقا وتقلدت ... حلى الحباب سوالف الانهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك ... جذل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفض بكرة لمم الربى ... والطل ينضح اوجه الاشجار
متقسم الالحاظ بين محاسن ... من ردف رابية وخصر قرار
واراكة سجع الهديل بفرعها ... والصبح يسفر عن جبين نهار
هزت له اعطافها ولربما ... خلعت عليه ملاءة النوار (١)

وهذا آخر وقد بكر الى الرياض : —

قد بكرت الى الرياض وقضبها ... قد ذكرتني موقف العشاق
يا حسنها والريح يلحف بعضها ... بعضا كاعناق الى اعناق
والورد خد والاقاحي مبسم ... وغدا النهار بثوب من احداق
لم انفصل عنها بكاس مدامة ... حتى حملت محاسن الاخلاق (٢)

وقال اخر :

الا حبذا روض بكرنا لنضحى ... وفي جنبات الروض للطل ادمع
وقد جعلت بين الغصون نسيمه ... تمزق ثوب الطل منها وترقع
ونحن اذا ما ظلت القضب ركعا ... تظل لنا من هزة السكر تركع (٣)

وكما لا يرون البعض ورود الرياض والحدائق الا في انصباح الباكر يحب البعض الاخر ورودها في الاصيل وعند المساء ، واحيانا تحت ضوء القمر . وهنا الشمس عند الاصيل وقد احمر الشفق وتلون العقيق

يا هل ترى اطرف من يومنا ... قلد جيد الافق طوق العقيق
وانطق الورق بعيدانها ... مرقصة في قضيب وريق
والشمس لا تشرب خمر الندى ... في الارض الا بكؤوس الشقيق (٤)

وتترك الشمس سناءها فوق نجيعها فوق النهر الصقيل

وقد غشي النبت بنحائه ... كهد والعذار بخد اسيل
وقد ولت الشمس محتشمة ... الى الغرب ترنو بطرف كحيل
كان سناها على نهره ... بقايا نجيع بسيف صقيل (٥)

---

(١) ديوان ابن خفاجة ٧٢
(٢) النفح الجزء الثاني طبعة ازهرية ٣٧٨
(٣) النفح الجزء الثاني طبعة ازهرية ١٩٨
(٣) « « « « « ٣٠٠
(٥) ديوان ابن خفاجه ١٠٤

وهنا يدعو ابن الزقاق خليله للذهاب معه عند الاصيل الى شاطئ نهر منساب في احد الرياض ليستمتع بالسحر والجمال :

دعاك خليل والاصيل كأنه ... عليل يقضي مدة الرمق الباقي
الى شط منساب كأنك ماؤه ... صفاء ضمير او عذوبة اخـــلاق
ومهوى جناح للصبا يمسح الربا ... خفي الخوافي والقوادم خفاق
على حين راح البرق في الجو مغمدا ... ظباه ودمع المزن من جفنه راق
وقد حان مني للرياض التفاتة ... حبست بها كاسي قليلا عن الساقي
على سطح خيري ذكرتك فانثنى ... يميل باعناق ويرنو باحداق
تصل زهرات منه هذا كأنمـا ... وقد فضلت قطرا محاجر عشاق (١)

وهذا آخر يصف عشية انس

وعشي انس اضجعتني نشوة ... فيه تمهد مضجعي وتدمث
خلعت علي بها الاراكة ظلها ... والغصن يصغي والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضة ... والرعد يرقي والغمامة تنفث

وهنا جلس البعض للشرب والسماء تهطل دمعها والبطحاء قد خلع عليها سندسها ودثرها نرجسها والشمس تنفض على الربى زعفرانها والانوار تغمض اجفانها فقال شاعر الحقل :

لو كنت تشهد يا هذا عشيتنا ... والمزن يسكب اسيانا وينحدر
والارض مصفرة بالمزن كاسيـة ... ابصرت تبرا عليه الدر ينتثر (٢)

وجلس رهط آخر للشرب والبدر قد كمل :

ولقد شربت الراح يسطع نورها ... والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر في جوزائه ... ملكا تناهى بهجة وبهـــاء
لما اراد تنزها في غربـــة ... جعل المظلة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يحفه ... لألأوها فاستكمل الآلاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله ... رفعت ثريا ها عليه لواء (٣)

وتصبح الطبيعة في نظر بعضهم حسناء حية لها جمالها ولها رونقها ولها نداها وشذاها الطيب :

ندى النسيم فما ارق واعطرا ... وهفا القضيب فما اغر وانضـرا
فزففتها بكرا اذا قبلتــها ... القت على وجهي قناعا احمرا

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٥٣ (٢) ديوان ابن خفاجه ٣٥

(٣) قلائد العقيان ×××× ١٠٠ (٤)

ورفلت بين قميص غيم هلهل ... ورداء شمس قد تمزق اصفرا

والريح تنخل من رذاذ لؤلؤا ... رطبا وتفتق من غمام عنبرا (١)

وشبه ابن خفاجة الاراك بالمرآة الحسناء ولا يخرج في وصفها عن غيره من الشعراء فالكؤوس والنجوم والمدام كلها الفاظ مستعارة تجعل من هذا الوصف وصفا تقليديا .

واراكة ضربت سماء فوقنا ... تندى وافلاك الكؤوس تدار

حفت بدوحتها مجرة جدول ... نثرت عليه نجومها الازهار

وكانها وكان جدول مائها ... حسناء شد بخصرها زنار

زف الزجاج بها عروس مدامة ... تجلى ونوار الغصون نثار

في روضة جنح الدجى ظل بها ... وتجسمت نورا بها الانوار

غناء ينشر وشيه البزازلي ... فيها ويفتق مسكه العطار

قام الغناء بها وقد نضح الندى ... وسن الثرى واستيقظ النوار

والماء من حلي الحياء مقلد ... زرت عليه جيوبها الاشجار (٢)

وكثيرا ما كان يخرج الشعراء الى الحدائق والرياض للتنزه والشراب وكثيرا ما كانوا يصفون حالهم ومكانهم ومن جميل ما قيل في وصف هذه المجالس هذه الابيات :

احسن المدامة والنسيم عليل ... والظل خفاق الرواق ظليل

والنور طرف قد تنبه دامع ... والماء مبتسم بروق صقيل

وتطلعت من برق كل غمامة ... في كل افق راية ورعيل

حتى تهادى كلما خوطة ايكة ... ريا ونضت تلقة ومسيل

عطف الاراكة فانثنى شكرا له ... طربا ورجع في الغصون هديل

فالريض مهتز المعاطف نعمه ... نشوان يعطفه الصبا فيميل

ريان فضضه الندى ثم انجلى ... عنه فذهب صفحتيه اصيل

وارتد ينظر في نقاب غمامة ... طرف يمرضه النعاس كليل

ساجي كما يرنو الى عواده ... شاك يولتهم المزيز ذليل (٣)

وللشعراء اخبار كثيرة ونوادر طريفة جدا في هذه المجالس التي كانت تعقد في الرياض والمنتزهات التي سأتي على ذكرها مما قريب في باب المنتزهات .

١ — الورود والرياحين

تكلمنا عن الرياض والحدائق ووصف الشعراء لها بصورة عامة والان لنجل جولة قصيرة في جنان النعيم هذه ولنقف مع الشاعر الاندلسي عند بعض هذه الورود والرياحين نتاملها ونتلذذ بمحاسنها ، بل دعونا نعرج معه الى غراس الفاكهة وما حوته من اطايب الازهار والثمار نستمتع بها ونشارك شاعرنا الاندلسي استمتاعه واعجابه ولنستمع الى الحانه في وصف هذه الازهار زهرة زهرة وهذه الاثمار ثمرة ثمرة ، ولنبدأ بملك الرياض

الـــورد :

الورد عند العرب من الرياحين المفضلة بل هو ملك الرياض فقد كان المتوكل يقول انا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين وكل منا اولى بصاحبه (١) وقال شاعرهم فيه :

للورد عندى محل لانه لا يمل
وكل الرياحين جند وهو الامير الاجل

ولم يختلف اهل الاندلس عن اهل المشرق في حبهم للرياض والرياحين والازهار فقد احبوها واولعوا بها ، فقد بلادهم بلاد النواوير والازهار وقد كان عندهم جبال تعرف بجبال الورد (٢) والورد عند البعض ملك النواوير ايضا كان سواء اوجد في الشرق اوفي الغرب فيقول :

الورد احسن ما رات عيني واز كى ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه فتذللت تنقاد وهي شوارد
واذا اتى وفد الربيع مبشرا بطلوع وفد فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه خبر عليه من النبوة شاهد
واذا تعرى الورد من اوارقه بقيت عوارفه فهن خوالد (٣)

ومما يدل على مركز الورد السامي عند الاندلسي انه كان يتهاداه الملوك والامراء كاثمن الهدايا وانفسها فقد كان في دار محمد بن السمح شاعر الدولة العامرية ومولاه وردة وكان يهدى وردها كل عام الى عارض الجيش احمد بن سعيد وحدث ان غاب العارض سنة (٤) فقال ابن السمح في لسان الوردة :

قال لي الورد وقد لا حظته في روضتيه
وهو قد اينع طيبا كمع الحسن لديه
اين مولاى الذى قد كنت تهديني اليه
قلت غاب العام فاين ان ترى بين يديه
فيدا يذبل حتى ظهر الحزن عليه (٥)

ومما يلاحظ من الاشعار التي نظمت في الورد ان الاندلسي لم يعرف الا لونا واحدا من الورد هو اللون الاحمر، اذ ان اوصافهم لم تتعد الاوراق الحمراء والاصفر في الوسط كما اكثر ما شبه به الورد خدود الحبيبة المحمرة من الخجل . فقد قال ابو وطرق في هدية ورد :

خذها اليك ابا عبد الله فقد   جاءتك مثل خدود زانها الخفر (١)

وقال آخر في وردة ظهرت قبل اوانها :

ووردة وردت في غير موقتها   والسحب قد هملت اجفانها هطلا
وانما الروض لما لم يفد تمرا   يغريك انفتحت في خده خجلا (٢)

وهنا يشبه شاعرنا الورد وقد تسربل بحلة من الشفق وقد قابله الياسمين بحلة صفراء كعاشق وحبه

يا حسنها دائرة   من ياسمين مشرق
والورد قد قابلها   في حلة من شفق
كعاشق وحبه   تغامزا بالحدق
فاحمر ذا من خجل   واصفر ذا من فرق (٣)

وفي المعنى نفسه قال آخر :

يا حسنها نا ثرة   من ياسمين كالحلي
والورد قد قابلها   في حلة من خجل
كعاشق وحبه   تغامزا بالمقل
فاحمر ذا من خجل   واصفر ذا من وجل (٤)

ويحيط ترنجان بورود خضراء حمراء فيصبح كخدود العذارى في معانقها الخضر

وورد جني طالعتنا خدوده   ببشر ينشر يبعثان على الشكر
وحفى ترنجان به فكانه   خدود العذارى في معانقها الخضر (٥)

ويتراءى الورد في الصباح وهو لا يزال برعما كم يهم بالتقبيل ولكن ما يلبث ان وجبينه حمراء قد خرجها الحياء بعد ان تركتها الشمس وقد طبعت في وسطها قبلة صفراء :ـ

اری الورد عند الصبح قد مد لي فما
يشير الي التقبيل في حالة اللمس
وبعد زوال الشمس القاه وجنة   وقد اثرت في وسطها قبلة الشمس (٦)

---

(١) النفح الجزء الاول ازهرى ١٤٨   (٢) النفح الجزء الثاني ازهرى ٢٢١
(٣) " " " " ٢٢١   (٤) " " " " ٢٢١
(٥) " " " " ٢٣٠   (٦) " " " " ٢٢١

ويروق لآخر الخروج الى الورود في الصباح وقد بللها قطر الندى وكأنها الدموع سالت على خد الورد ولكن ما تلبث ان تجففها شمس الضحى

فوق خد الورد دمع ... من عيون السحب يذرف
برداء الشمس اضحى ... بعد ما سال يجفف (١)

ويرى محمد بن عبد الله بن طاهر في اوراق الورد الحمراء يواقيت وفي الخضراء زمردا وفي اواسطها ذهبا

اما ترى شجرات الورد طالعة ... منها بدائع قد ركبن في قضب
كانها يواقيت يحيط بها ... زمرد وسطها نقش من الذهب
كأنه حين يبدو من مطالعه ... صب يقبل جا غير مرتقب
خاف الرقيب وداعي الشوق يؤمنه ... فصار يظهر احيانا من الحجب (٢)

ويراها آخر مداهن من يواقيت ركبت على الزبرجد وفي جوفها خالص الذهب :

اما ترى الورد يدعو للورود الى ... خمر معتقة لونها اصهب
مداهن من يواقيت مركبة ... على الزبرجد في اجوافها ذهب
كأنه حين يبدو من مطالعه ... صب يقبل حبا وهو يرتقب
خاف الملال اذا طالت اقامته ... فظل يظهر احيانا ويحتجب (٣)

ورائحة الورد هي المسك

وردتك يا سيدي ورده ... تذكرك المسك انفاسها
كعذراء ابصرها مبصر ... فغطت باكمامها راسها (٤)

وفي خجل الورد قال آخر

فالند يصفر لاستحسانه حسدا ... والورد يحمر من ابداعه خجلا (٥)

---

(١) النفح الجزء الثاني ازهرى ٢٢١
(٢) حلية الكميت النواجى ٢٣٨
(٣) الارب النويري الجزء (١١) ×× ١٩٠
(٤) حلية الكميت النواجى ٢٤٠
(٥) الدولة العباسية الجزء الاول ص ٣٢

الياسمين

لم تنل هذه الزهرة حظوة كبيرة عند الاخطه شعراء الاندلسيين ولذلك لم يصفوها كثيرا وما الياسمين في عرفهم الا بساط اخضر يتخلله الجوهر

يا حبذا الياسمين اذ يزهر فوق غصون رطيبة نضر
قد امتطى للجمال ذروتها فوق بساط من سندس اخضر
كانه والعيون ترمقه زمرد في خلاله جوهر (١)

قال ابو الحسن حازم ابن محمد القرطاجني يصف الياسمين

حديقة الياسمين لا تهيم بغيرها الحدق
اذا جفن الغمام بكى تبسم ثغرها اليقق
فاطراف الاهلة سا ل في اثنائها الشفق (٢)

وقال المعتمد ابن عباد

كانما ياسميننا الغض كواكب في السماء تبيض
والطرق الحمر في بواطنه كخد عذراء مسه عض (٣)

وفيه قال احمد ابن عبد الرحمن القرطبي

ولقاء خلناها سماء زبرجد لها انجم زهر من الزهر الغض
تناولها الجاني من الارض قاعدا ولم ار من يجني النجوم من الارض (٤)

النرجس

ويعرف عند اهل الاندلس بالبهار وقد شبهه الشعراء بالعينن وقد قال الجزيرى على لسان بهار العامرية ابن المنصور

حدق الحسان تقر لي وتغار وتضل في وصفي النهى وتحار
طلعت على قضبي عيون تمائمي مثل العيون تحفها الاشفار
واخص شيء بي اذا شبهته در تمنطق سلكه دينار
انا نرجس حقا بهرت عقولهم ببديع تركيبي نقيل بهار (٥)

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٤٦٨ (٢) النفح جزء اول طبعة ازهرية ٦٢٢
(٣) النويرى جزء ثاني ٢٣٧ (٤) النويرى جزء ثالي ٢٣٨
(٥) النفح الجزء الثاني طبعة ازهرية ٣٧٢

وشبه الشعراء الاصفر في وسط الزهرة بالتبر ، والاوراق البيضاء بانامل من فضة ركبت على اذرع من زبرجد

تامل فقد شق البهار كمائما وابرزهن نواره الخضل الندى
مداهن تبرفي انامل فضة على اذرع مخروطة من زبرجد (١)

وفي هذا المعنى قال ابوالاصبع بن سيد

كانما النرجس في منظر الحسن الذى امثالـه تبتـغي
انامل من فضة فوقـه كاس من التبر به افرغـا (٢)

وقال شاعر يصف احدى نزهنا ، ومررنا في احدى نزهنا بمكان مفترون المحاسن مسفر وفيه برك نرجس كانه عيون مراض ، يسيل وسطه ماء ضراض

نرجس باكرت منه روضه لذ قطع الدهر فيه وعذب
حنت الريح بها خمر حيا رقص النبت لها ثم شرب
فغدا يسفر عن وجنته نوره الغض ويهتز طرب
خلت لمع الشمس في مشرقه لهبا يحمله منه لهب
وبياض الطل في صفرته نقط الفضة في خط الذهب (٣)

وشبه احمد بن احمد الاشبيلى النرجس بالعاشق الولهان الذى اضربه فرط السقام

اما ترى النرجس الغض الذكي بدا كانه عاشق شابت ذوائبـه
او المحب شكا لما اضربه فرط السقام فمارته حبائبه (٤)

ويبدو النرجس لابن حداد كاذرع الغيد وقد البست خضر البرود وتجلت فوق انامها صفر اليواقيت

انظر الى النرجس الوضاح حين بدا كانه ناظر من عين مبهوت
كاذرع الغيد في خضر البرود جلت على اناملها صفر اليواقيت (٥)

وتتحول اذرع الغيد عند ابن الجنان الى معاصم تحمل كما من الدر صب فيه الذهب

ونرجس قائم على قضب شخص الحافظه لغير عجـب
كمعصم من زبرجد حملت كما من الدر فيه جام ذهـب (٦)

وشبهه شاعر آخر بياقوتة صفراء حولها ستة درر

انظر الى نرجس في روضة انفا غناء قد جمعت شتى من الزهـر
كان ياقوتة صفراء قد طبعت في غصنه حولها ست من الـدر (٧)

وقال ابن عباد

عمرى لقد راق طرفي حسن زاهره تميس في سندسيات من الورق
ابدت لنا عجبا منها حديقتها عينا من التبر في جفن من الورق (٨)

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣١٣
(٢) النفح جزء ثاني طبعة ازهرية ٢٨٤
(٣) قلائد العقيان ٢٠٩
(٤) ٢٨٤
(٥) حلية الكميت النواجي ٢٣١
(٦) حلية الكميت النواجي ٢٣٢
(٧) النويرى الجزء الثاني ٢٣٢
(٨) النويرى الجزء الثاني ٢٣٢

الشــقيــــق

ولون الشقيق الاحمر يذكر الشعراء بالدماء ، فقال احدهم في خامات زرع بينها شقائق نعمان هبت عليه ريح

انظر الى الزرع وخاماتــــه — تحكي وقد ماست امام الريـــح

كتائبا تجفل مهزومة — شقائق النعمان فيها جـــراح (١)

بل حمرة الشقيق هي مسروقة من حمرة خدود الملاح في نظر ابن زقاق

زرتها والغمام يجلد نهمة — زهرات تفوق لون الراح

قلت ما ذنبها فقال مجيبا — سرقت حمرة الخدود الملاح (٢)

وقال ابن خفاجـــه

يا حبذا والبرق يزحف بكرة — جيشا وحيق دونه وحريق

حتى اذا ولى واسلم عنوة — ما شئت من سهل وذروة نيق

اخذ الربيع عليه ثنية — فبكل مرقبة لواء شقيـــــق (٣)

وتتراءى الشقائق المتدة في السهول الخضراء كغيد مشطت شعورها وقامت ترقص بغلائلها الحمر

نظرت الى حسن الرياض وغيمها — جرى دمعه منهن في اعين الزهر

فلم ترحيني بها كشقائـــــق — تبلبلها الارواح في القضب الخضر

كما مشطت غيد القيان شعورها — وقامت لرقص بغلائلها الحمـــر (٤)

---

(١) قلائد العقيان ٢٢٢ — (٢) النفح الجزء الاول ازهرى ٢٢٢

(٣) ديوان ابن خـفـاجه ٩٥ — (٤) ديوان ابن حمديس ١٦٣

النيلوفر

النيلوفر بالكسر وبفتح الفاء ومنهم من يقول النينوفر ومنهم من يفتح الاول وهو ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة من اصل كالجزر وساق املس يطول بحسب عمق الماء فاذا ساوى سطحه اورق وازهر واذا بلغ يسقط من راسه ثمر داخله بزر اسود .

كثرت البرك والبحيرات في الحدائق والبساتين وفي مساكن الاشراف وقصور الخلفاء واماكن اللهو فكونت جوا ملائما لنمو زهرة النيلوفر التي لا تنبت الا في المياه الراكدة . ولقد جذبت هذه الزهرة البيضاء المنقطة بالاسود ذات الاوراق الخضراء الطافية على وجه المياه افكار الشعراء كثيرا ، هذه الزهرة التي تتفتح في الصباح وتنطوي في المساء كانها عاشق تاذن لحبيبها في النهار بان يتمتع بها وتمنعه منها في الليل خوف الرقيب

وبركة تزهو بنيلوفـر	نسيمه يشبه نشر الحبيب
مفتح الاجفان في يومه	حتى اذا الشمس دنت للمغيب
اطبق جفنيه على حبه	وغاص في البركة خوف الرقيب (١)

ويجد هذا العاشق الولهان في النوم لذة اذ لعله في الكرى يبصر من فارقه عن قريب

وبركة احيا بها ماؤها	من زهرها كل نبات عجيب
كان نيلفرها عاشق	نهاره يرقب وجه الحبيب
حتى اذا الليل بدا نجمه	وانصرف المحبوب خوف الرقيب
اطبق جفنيه عسى في الكرى	يبصر من فارقه عن قريب (٢)

ويظهر ان لون النيلوفر الصفر قد ذكره بلون وجهه وما حال الزهر الا كحاله حزين متالم يعوم في ابحر من الدموع

نيلوفر شكله كشكلي	يعوم في ابحر من الدموع
قد البسته عطفه دروعا	خود لريح الصبا شموع
يلوح اذ لونه كلوني	من فوق نضناضة هموع
مثل مسامير مذهبات	في حلقات من الدروع (٣)

وطيب اريج النيلوفر البهيج يحيي النفوس فيدعو شاعرنا الناظرين الى التمتع بتالق جام الدر الذي احكم في وسطه قصا من السبج

---

(١) النويرى الجزء الحادى عشر ٢٢١ (٢) النويرى الجزء الحادى عشر ٢٢١

(٣) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٤١

يا ناظرين لذا النيلوفر البهج | وطيب مخبره في الفوح والارج
كانه جام درفي تالقه | قد احكموا وسطفصا من السبج (١)

ويميل ابن حمديس الى اللون الاخضر فيذكره النيلوفر بالياقوت الاحمر وقد ضمن شعرا من الزعفران للنيلوفا

كانما النيلوفر المجتنى | وقد بدا للعين فوق البنان
مداهن الياقوت محمرة | قد ضمنت شعرا من الزعفرا ن (٢)

وكان من عادة اهل الاندلس ان يجلسوا حول البرك يشربون ويطربون وما كان يزيد المكان بهجة ازهار النيلوفر البارزة على وجه الماء ولهذا يدعو ابن حمديس طلاب الشراب قائلا :

اشرب على بركة نيلوفـــر | محمرة النوار خـضـراء
كانما ازهارها اخرجت | السنة النار من الماء (٣)

والظاهر ان هذه الزهرة كانت حبيبة الى قلوب البعض فالكل باسط يده نحو النيلوفر الندى

كلنا باسط يده | نحو نيلوفر ندى
كدبابيس عسجد | قضبها من زبرجد (٤)

المـنـثـور

يكثر المنثور في الاندلس على انواع مختلفة ويعرف عندهم بالخيري وهنالك نوع آخر يعرف بالخام وهذه جد زهرة جريئة عكس زهرة النيلوفر الخجول في عرف الشعراء ، لا تطيب الا ليلا للقاء الحبيب ولا تعبق رائحتها الا في الظلام . فاذا جن الظلام تبدت مع الامساء تفتش عن الحبيب

وخيرية بين النسيم وبينهـــا | حديث اذا جن الظلام يطيب
تبدت مع الامساء حتى كانما | لها خلف استار الظلام حبيب
وتخفى مع الاصباح حتى كانما | عليها لانوار الصباح رقيــب (٥)

وكتب لا احدهم يستهدى منثورا :

لك الخير اتحفني بخير روضة | لانفاسه عند الهجوم هبوب
اليس اديب الروض يجعل ليله | نهارا فيذكو تحته ويطيب
ويطوى مع الاصباح منثور نشره | كما بان عن ربع المحب حبيب (٦)

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٤٦٠ (٢) ديوان ابن حمديس ٤٣٦
(٣) ديوان ابن حمديس ٤ (٤) تاريخ الدولة العبادية دوزى ٣٢
(٥) النويرى الجزء الحادى عشر ١٩٩ (٦) النفح جزء اول طبعة ازهرية ٦٢٢

البنفسج

البنفسج احدى الزهرات التي احبها العامريون منذ المنصور حتى آخر هذه السلالة وقد سمى المنصور احدى بناته بهذا الاسم،وحدائق العامرية كانت ملأى بهذه الزهرة الناعمة الجميلة . وقد قال فيه الجزيرى على لسان البنفسج وهي ابنة المنصور العامرى :

شهدت لنوار البنفسج السن — من لونه الاحوى ومن ايناعه
بمشابه الشعر الاحم اعاره القمر — المنير الطلق نور شعاعه
ولربما جحد النجيع من الطلى — في صارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف في لونه — لا في روائحه وطيب طباعه (١)

وقال احدهم يصفه

بنفسج جاءك في حهن لا — حرورى فيه ولا فرط برد
كانه لما اتينا به — ملخص الاثواب باللازورد (٢)

السوسن

يشبه الشعراء اوراق هذه الزهرة البيضاء بكؤوس البلور والنقط الصفراء في الوسط بالسنة الذهب .

وسوسن راق مرآه ومخبره — وجل في اعين النظار منظره
كانه اكؤس البلور قد صنعت — مسدسات تعالى الله مظهره
وبينها السن قد طوقت ذهبا — تنن بينها قائم بالملك يؤثره (٣)

وهنا يشبهها ابن الابار بالثريا

وسوسنات ارت من حسنها بدعا — ولم يزل عصر مولانا يرى بدعه
شبيهة بالثريا في تالقها — وفي تالقها تلتاح ملتمعة
هامت بيمناه تبغي ان تقبلها — فاستشرفت تجتلي مرآه مطلعه
ثم انثنى بعضها من بعضها قلبا — على الهدار توافت وهي مجتمعه (٤)

وقيل دخل المطرف بن ابي الحباب الشاعر على المنصور في هذه المنية فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات اثنان قد تفتحتا وواحدة لم تتفتح بعد فقال :

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٧٨ — (٢) حلية الكميت ٢٤٦
(٣) « « « « « ٣١٢
(٤) « « « « « ٣٤١

ابدت ثلاثا من السوسان مائلة ... اعناقهن من الاعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح ... والبعض منغلق عنهن في شغل
كانها راحة ضمت انامـلـها ... من بعد ما ملئت من جودك الخضل
واختها بسطت منها انامـلها ... ترجو نداك كما عودتها تصل (١)

الآس

وللآس او الريحان رائحة طيبة ، وقال ابن خفاجه في صفة ريحان مطيب ورد ليلا

لك الله من سار الى مسلم ... فناب وراء الليل عن ام سالم
يجول به ماء النضارة والندى ... كما جال ماء البشر في وجه قادم
تنفس يهدى عن حبيب تحيته ... هززنا لها زهوا تفول العمائم
يذكرنا ريا الاحبة نفحه ... فنذكره بالدمع سقيا الغمائم (٢)

وط الريحان للعاشقين في عرف البعض

جنان يا جنان ، اجن من البستان ، الياسمين
واترك الريحان بحرمة الرحمن للعاشقين (٣)

ولم يكتف شعراء الاندلس بوصف الرياحين والورود بل تعرضوا الى وصف نواوير الفاكهة وازهارها ، وهذا ابن خفاجه يصف مجلس انس واخوان صدق قد فرش بين ايديهم وثنى عليه زهر النارنج فقال :

وندى انس هزني ... هز الشراب من الشباب
والليل وضاح الجبين ... قصير اثناء الثياب
فقنصته منه حمامة ... بيضاء تسنح من غراب
والنور مبتسم وخد الورد مخطوط النقاب
يندى باخلاق الصحاب هناك لا ندى السحاب (٤)

وقال آخر في وصف زهر اللوز

لا نور يعقل نور اللوز في انق ... وبهجة عند ذى عدل وانصاف
نظام زهر يظل الدر منتثرا ... عليه من كل هاني القطر وكاف
بينا ترى وهي اصداف لدر حيا ... بيض غدت دررا في خضر اصداف (٥)

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٧٢
(٢) ديوان ابن خفاجه ١١٣
(٣) » » الاول » ٤٢١
(٤) » » » » ١٦
(٥) » » » » » ٣٤١

وهنا يقول آخـــر في وصف نوار الكتان ، وقد ازهر على جانبي الخليج :

انظر الى النهر والكتان يرمقـــه ‏ ‏ من جانبيه باجفان لها حـــدق
رأته سيفا عليه للصبا شـــطـــب ‏ ‏ فقابلته باحداق لها ا رق
واصبحت في يد الارواح تنسجها ‏ ‏ حتى غدت حلقا مـــن نوتها حلق
فلم تزرها ووجه الارض مصطبح ‏ ‏ او عند صلوته ان كنت تغـــتبق ‏ ‏ (١)

ويرحب آخر بزهـــر اللازورد فيـقـــول :

اهلا بزهر اللازورد ومـــرحـــبا ‏ ‏ في روضة الكتان تعطفه الصـــبا
لو كنت ذا جهل لخلتك لجة ‏ ‏ وكشفت عن ساق كما فعلت سبا ‏ ‏ (٢)

---

(١) النفح الجزء الاول الطبعة الازهرية ص ٤٩
(٢) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٧٧

٢ ـ غراس الفاكهة وسواها

"قيل خير احدهم بين ترك الاندلس وبين الوصول الى حضرة مراكش ليشغل منصب الوزارة هنالك ، فاجاب " وبعد فكيف افارق الاندلس؟ وقد علم سيدى انها جنة الدنيا بما حباها الله من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وكثافة الافياء .

"هي الارض لا ورد لديها مكدر ولا ظل مقصور ولا روض مجدب"

افق صقيل ، وبساط مرح ، وماء سائح وطائر مترنم ، وهواء بليل ، وكيف يعدل الاديب عن ارض على هذه الصفة " (١) .

ان هذه البلاد الطيبة التي تشبه سوريا ببساتينها الصافية وارضها الجميلة ، واليمن بطيب الجو وحسنه ، والهند باطيابها وزهورها ، ومصر بخصبها ، ذات الانهار الكبيرة والمياه العذبة الغزيرة والتربة المخصاب (٢) كانت موطنا كريما لنمو الاشجار والمزروعات على مختلف انواعها فنبت فيها اطيب الثمار المختلفة واحسن الحبوب والخضروات ، ولا يجب ان ننسى فضل العرب في تحسين الزراعة وما فعلوه بعد ان المو بخواص الزراعة وجعلوا فلاحة الارض علما قائما بذاته كما درسوا ملائمة الطقس والتربة لمختلف انواع الفاكهة والنباتات . ويدين الاسبان للعرب بادخال زراعة الارز وقصب السكر والقطن والزعفران والاسبناخ ومختلف انواع الفاكهة الى اسبانيا ، ومنها اخذ العرب هذه المزروعات (٣) .

" كذلك استغل العرب موقع كل منطقة وزرعوا فيها المزروعات الملائمة كاحراش النخيل في بلاد بلنسية ، والارز في البوفرام والقصب السكر والقطن في اوليفيا وكندية ، وكانت الكروم تبدوا من ابدع ما تقع عليه العين في شريش وغرناطة ومالقة بينما كانت اراضي اشبيلية والقسم الاعظم من اندلوسيا مزروعة بالزيتون ، وقد انشئت في كافة البلاد القناطر الكبيرة وحفرت الترع والمصارف العديدة لاستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية " (٤) .

وكان للخلفاء والامراء اليد الطولى في العمل على انعاش هذا الفن وانماضه وخاصة الخلفاء الامويون فجلبوا نوى الفواكه المختارة من اقاصي البلاد وغرسوها وعمموها بين الناس كما فعل عبد الرحمن الداخل بن معاوية حين ابتنى قصر الرصافة لتنزهه وسكناه كما مر معنا ووبها الجنان الواسعة ونقل اليها غرائب الغروس واكارم الشجر من كل ناحية ، كما وارسل الرسل الى بلاد الشام لجلب النوى المختارة والحبوب الغريبة وزرعها في جنائن القصر ، وبمدة قصيرة نمت اشجار ملتفة الاغصان كثيفة الاوراق جاءت بغرائب الفواكه ومن ثم تم عمومها في سائر انحاء الاندلس .

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي امير سيد علي ٤٨٣

(٢) " " " " " " " ٤٨٣

(٣) النفح المجلد الاول الجزء الاول الطبعة الجديدة ٣٢ ـ ٣٤

وهكذا اصبحت الاندلس اسعد بلاد الله بكثرة الثمار واصناف الفواكه كما جاء في النفح " ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ولا يعدم فيها الا التمر ، ولها من انواع الفاكهة ما يعدم في غيرها او يقل كالتين القوطي والتين السفرى باشبيلية . قال ابن سعيد وهذان صنفان لم ترعيني لهما منذ خرجت من الاندلس ما يفضلهما وكذلك التين المالقي والزبيب المنكبي والزبيب العسلي والرمان السفرى والخوخ واللوز والجوز وغير ذلك مما يطول ذكره (١) . واختصت كل ناحية من كل نواحي الاندلس بفاكهتها الخاصة فقد اشتهر اهل جلبانة من اعمال غرناطة باعتنائهم بالتفاح المعروف بالجلياني المشهور بعظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء . (٢) وهناك نوع يفوق الجلياني حجما يكثر في مدينة شنترة من اعمال المريه كان يهدى للملوك والامراء .(٣) وكانت مدينة سرقسطة اطيب البلدان بقعة واكثرها ثمرة لكثرة الفواكه في بساتينهم حتى لا يقوم ثمنها بمؤونة نقلها لرخصها فيتخذونها سرجينا يدمنون بها ارضهم . وهذه المدينة على قمة انهار متصلة الجنان والبساتين واسعة الشوارع حسنة الديار والمساكن ومن فاكهتها العنب والتين و والخوخ وحب الملوك والتفاح والاجاص ، ومن حبوبها القمح والفول والحمص . (٤) وفي لقنة فواكه وبقل كثير وتين واعناب (٥) . واشتهرت لورقة بالزيتون ويقال ان في احدى نواحيها موضع معروف من اراد ان يتخذ فيه جنانا صرف الى الموضع العناية بالتدمين والعمارة والسقي من النهر فتنبت خصيبة (٦) . وقرية منيانة قرب وادى آش جامعة خطيرة كثيرة الكروم والتوت والبساتين وضروب الثمار وكان بها طراز الديباج والمياه تطرده في جميع جناتها (٧) .

وتسمى "تدمير" بالبستان لكثرة جناتها المحيطة بها (٨) . وينبت في بلنسية الزعفران وبها كمثرى تسمى الاروية في قدر حبة العنب قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة اذا دخل دارا عرف برائحته (٩)

---

(١) النفح الطيب المجلد الاول الجزء الاول ٦٦ (٢) النفح الجزء الاول طبعة بولاق ٧٤

(٣) النفح الجزء الاول طبعة بولاق ٨٠ (٤) الروض المعطار الحميرى ٩٨

(٥) الحميري " المجلد الاول ١٢٠ (٦) النفح المجلد الاول الجزء الاول ٢٠٦

(٧) الحميرى ١٤٤ (٨) " " " " ٣٢١

(٩) النفح المجلد الاول الجزء الاول ٢٧

اما فاكهة المرية فيقصر عنها الوصف حسنا (١) وطول واديها اربعون ميلا في مثلها فيها بساتين بهجة وجنات نضرة وانهار مطردة وطيور مغردة (٢) وحصن تنشي على مرحلة من المرية التوت الكثير وفيها الحرير والقرمز . (٣)

وحصن بيشتر وما حوله كثير المياه والاشجار والثمار والكروم وشجر الزيتون والتين واصناف الفواكه (٤) . ويحيط بمدينة شلطيش رياض واسعة وأوار عذبة و بساتين حسنة فيها اطيب الصنوبر ، وبها مزارع خصبة الارض هناك شجر التفاح والكمثرى والتين والرمان وضروب الفواكه (٥ وتشير لورقه باللاتيني الزرع الخصيب (٦) . ومربيطر كثيرة الزيتون والشجر والاعناب واصناف الثمار ٨ وتلقب " شودرا " بخدير الزيت لكثرة زياتينها (٩) . واشتهرت مرسية بالتين وهي رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والاعناب واصناف الثمار (١٠) .

ويجود الموز وقصب السكر في شلوبينية (١١) . وبمالقة التين الذى يضرب المثل بحسنه ويجلب حتى للهند وقيل انه ليس في الدنيا مثله وقد ذكره الشعراء كثيرا (١٢) . وفي مالقة اشجار النارنج البديعة (١٣) وهي كثيرة الخيرات والفواكه وقال احد الادباء " رايت العنب يباع في اسواقها بحساب ثمانية ارطال بدرهم صغير ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا واما التين واللوز فيجلبان منها ومن اجوارها الى بلاد المشرق والمغرب (١٤) وفي طليطلة بساتين محدقة وانهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان مختلفة الطعوم والالوان في جميع جهاتها وقراها ، وعيون ماء عذبة تصلح بها الالبان والقطاني (١٥) .

ويجود القطن والعصفر بارض اشبيلية وبقبلي هذه المدينة يوجد بساتين تعرف بجنان الصلي وبها قصب السكر (١٦) ويكثر فيها الزيت والزيتون وهي كبيرة عامرة لها اسوار محصنة واسواقها عامرة وخلقها كثير واهلها مياسير وجل تجارتهم الزيت يتجهزون به الى المشرق والمغرب برا وبحرا فيجتمع هذا الزيت من الشرق وهو مسافة اربعين ميلا كلها في ظل شجر الزيتون والتين باوله مدينة اشبيلية وآخره مدينة لبله (١٧) .

---

(١) النفح مجلد اول جزء اول ٣١٨
(٢) النفح مجلد اول جزء اول ٣١٨
(٣) " " " " " ٣٢٠
(٤) الحميرى ٤٧
(٥) الحميرى ١٧١ — ١٧٢
(٦) " ١٧١ — ١٧٢
(٧) " ١١٧ — ١٨١
(٨) " ١٨١ — ١٨٣
(٩) الحميرى ٨١ — ١٨٣
(١٠ و ١١) الحميري ١١١ و ١١٣
(١٢) المقرى المجلد الاول الجزء اول ٢٩٨
(١٣) المقرى مجلد اول جزء اول ٢٩٩
(١٤) " " " " " ٣٠٠
(١٥) الحميرى ١١١
(١٦) الحميرى ٢١
(١٧) " ١٩

ومن خواص مدينة شنترة القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي اربعين يوما من زراعته ، ان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة اشبار واكثر وجاء في النفح ان ابا عبد الله البا كورى قال " ابصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من اهل شنترة اهدى اليه اربعا من التفاح ما يقل الحامل على راسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة اشبار (١) ومدينة لارده مخصوصة بكثرة الكتان وطيبه يتجهز بالكتان الى جميع نواحي الثغور (٢) . اما فحص البيره فهو من اطيب الله البقاع نفعه واكرم الارضين تربة " ولا يعدل به مكان غير غوطة دمشق وشارحة الفيوم ولا تعلم شجره تستعمل وتستغل الا وهي انجب شيء في هذا الفحص وما من فاكهة توصف وتستظرف الا هناك ويجود فيها ما لا يجود الا بالساحل من اللوز والقصب السكر وما اشبههما ، وحرير فحص البيره هو الذى ينتشر في البلاد ويعم في الافاق وكتان هذا الفحص يربو جيده على كتان النيل (٣) .

وكانوا يجنفون هذه الفاكهة ويحفظونها لوقت الحاجة " فقد كانت فواكههم اليابسة عامة العام متعددة يدخرون العنب سليما من الفساد الى شطر العام الى غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز الى غير ذلك مما لاينفذ ولا ينقطع الا مدة في الفصل الذى يزهد في استعماله " (٤) . وقد وصف شعراؤنا الفاكهة والثمار بانواعهما كما انهم اعاروا الباقلاء والخضروات ونباتات الكتان والحرير والقطن شيئا من التفاتهم وتذكروها في اشعارهم وساتكلم باختصار عن هذه الثمار وكيف وصفوها ممثلة عن كل نوع ببعض الابيات لاعطي القارئ نظرة سريعة واضحة عن ثمار الاندلس واثرها في نفس الشاعر الاندلسي .

النـــارنـــج

احب الاندلسيون هذه الشجرة باوراقها الخضراء وازهارها واثمارها الصفراء المائلة الى الحمرة وكثيرا ما كانوا يجلسون تحتها يشربون ويطربون وينظمون الشعر وكعادتهم في قرض الشعر كان من واجبهم ان يصفوا المكان الذى هم فيه فقال ابن خفاجه يصف شجرة نارنج ويصف الشرب تحتــهــا :

انعم فقد هبت النعامـــى	ونبهت ريحها الخزامى
وبل الى ايكة بليل	يهفو اهتزازا بها ندامى
تهتز اعطافها القوافـــيح	لها واكوابــهـا الندامى
كان انا بها روعا	تحضن من شربها يتامى (٥)

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الاول ٣٢٠ (٢) الحميــــرى ١٦٨

(٣) الحميــرى ٢٤ (٤) الاحاطـــة ٣٧

(٥) ابن خفاجه الديوان ١١٢

وقال ابن خفاجه ايضا في وصف شجرة نارنج وقد خطب الطير على اغصانها اللدنة طربا بماء وانتصب الماء مسرورا وبانت زبرجدة اثمرت بالذهب :

الا افصح الطير حتى خطب ... وخف له الغصن حتى اضطرب
فعل طربا بين ظل هفا ... رطيب وماء هناك انتصب
وجل في الحديقة اخت المنى ... ودن بالمدامة ام الطرب
وحاملة من بنات القنا ... اما ليد تحمل خضر العذب
تنوب موقفة عن عذار ... وتضحك زاهرة عن شنب
وتندى بها في مهب الصبا ... زبرجدة اثمرت بالذهب
نفاوح انفاسها تارة ... وطورا نغازلها عن كثب
فتبسم في حالة عن رضا ... وتنظر اونة عن غضب (١)

ويتساءل ابن سارة فيها اذا كانت ثمار النارنج حمرا على الاغصان ام خدود ابرزتها العوادج وهل اغصانها قضب تثنت ام قدود نواعم واخيرا يهتدى اليها فيجدها كرات عقيق في غصون زبرجد و بل هي خدود في نظره ونوافح :

احمر على الاغصان ابدى نضارة ... به ام خدود ابرزتها العوادج
وقضب تثنت ام قدود نواعم ... اعالج من وجد بها ما اعالج
ارى شجر النارنج ابدى لنا جنى ... كقطر دموع خرجتها اللواعج
جوامد لو ذابت لكانت مدامة ... تصوغ البرى فيها الاكف البوارج

---

(١) ابن خفاجه الديوان ١١٢

(٢)

كرات عقيق في غصون زبرجد ... بكف نسيم الريح منها صوالج

تقبلها طورا وطورا تشمها ... فهن خدود بيننا ونوافج

فهي صبوتي الا تصيخ الى التقى ... عروس من الدنيا عليها دمالج (١)

ويظهر ان هذه الثمرة قد اعجبت ابن صارة والخفاجي فقال فيها ابن صارة :

يا رب نارنجة يلهو النديم بها ... كانها كرة من احمر الذهب

او جذوة حملتها كف صاحبها ... لكنها جذوة معدومة اللهب (٢)

فقال الخفاجي وقد شبه الشجرة بحسناء تميس باردية خضراء وقد خلع عليها الحياء حلى حمراء

وميّاسة تزهو وقد خلع الحيا ... عليها حلى حمراء واردية خضرا

يذوب بها ريق الغمامة فضة ... ويجمد في اعطافها ذهبا نضرا (٣)

فاجاب ابن صارة :

ونارنجة لم يدع حسنها ... لعيني في غيرها مذهبا

فطورا ارى ذهبا خرطا ... وطورا ارى سفنا مذهبا (٤)

وهنا يلتفت الفزع ايكة فيترك على ارجائها اثر :

وبت أيك دنا من لثمها فزع ... فثار منه على ارجائها اثر

يبدو لعينك منها منظر عجب ... زبرجد ونضار صاغه المطر

كان موسى نبي الله اقبسه ... نارا وجر عليها كمه الخضر (٥)

وشبه ابو الحسن الصقلي الغصون بالقدود والثمار بالخدود :

تنعم بنارنجك الكجتني ... لقد حضر السعد لما حضر

فيا مرحبا بقدود الغصون ... ويا مرحبا بخدود الشجر

كان السماء همت بالنضار ... فصاغت لها الارض منها آكر (٦)

وتبدو حبات النارنج لابي الحسن الصقلي ككرات ذهب في صولجان زمرد

ونارنجة بين الرياض نظرتها ... على غصن رطب كقامة اغيد

واذا ميلتها الريح مالت كاكرة ... بدت ذهبا في صولجان زمرد (٧)

- من هذه الامثلة القليلة نجد ان صور الشعراء لم تختلف في وصف هذه الفاكهة فهي كرات ذهب ونضار وقطع جمر ملتهبة حمراء في اوراق زبرجد وزمرد على اغصان تنثني كقوام الغيد

وقال احدهم في ليمونة وقد اهدت اليه

اهدى الي بروضة ليمونة ... واشار بالتشبيه فعل السيد

نعمت حينا ثم ملت كجلجل ... من فضة تعلوه صفرة عسجد (٨)

---

(١) قلائد العقيان ٢٦٦ (٢) نفح جزء ثاني طبعة ازهرية ٣٤٠ (٣) النفح جزء ٢ ازهرية ٣٤٠
(٤) نويري جزء ١١ ، ١١٢ (٤) ٣٤٠ (٥) ٢٣٦
(٧) ١١٦ (٨) ٢٥٩

الرمـــــــان

ولانتشار الرمان في الاندلس اسطورة لطيفة . قيل عندما ارسل عبد الرحمن الداخل رسوله الى الشام لاحضار اخته الى الاندلس جلب معه طرائف من رمان الرصافة المنسوبة الى هشام فعرضه عبد الرحمن على خواص رجاله مباهيا به وكان فيما بينهم وفيمن حضر منهم عبد سفر بن يزيد الكلاعي من جند الاردن فاخذ من ذلك الرمان جزءا فسار به الى قرية بكورة ريه ، فعالج عجمه واحتال لغرسه وغذائه وتنقليه حتى طلع شجرا اثمر واينع فنزع الى عرقه واغرب في حسنه . واحضر بعض ثماره الى عبد الرحمن فاذا هو اشبه شي بذلك الرصافي فساله الامير عنه فعرفه وجه حيلته فاستبرع استنباطه واستنبل همته وشكر صنعه واجزء صلته واغترس منه بمنيتها الرصافة وبغيرها من جنانه فانتشر نوعه واستوسع الناس في غراسه وصار يعرف منذ ذلك الحين بالرمان السفرى وهو يمتاز بعذوبة الطعم ورقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة (١) وقد وصف هذا الرمان محمد بن روح الشاعر في ابيات كتب بها الى بعض من اهداه له :

ولابسة صدفا احمرا	اتتك وقد ملئت جوهــــرا
كانك فاتح حق لطيــف	تضمن مرجانه الاحمــــرا
حبوبا كمثل لثات الحبيـب	لا رضابا اذا شئت او منظــرا
وللسفر تعزى وما سافــرت	فتشكو النوى او تقاس السـرى (٢)

وشبه آخر حبات الرمـــان باسنان الليث المضرجة بالدم :

وساكنة في ظلال الغصــون	بروض يروقك افنـــــانه
تضاحك اترابها فيه اذا	غدا الجو تدمع اجفـــانه
كما فتح الليث فاه وقــد	تضرج بالدم اســـنانه (٣)

وقال ابن نزار الوادى اشي فيـــه :

ورمانة قد فضضـــنا ختامها	حبيب اطار البدر بعض صفاته
فكسر منها نهد عذراء كاعب	وناولني منها شبيه لذاتــه (٤)

---

(١) النفح الجزء الرابع طبعة ازهرية ٤٩ — (٢) النفح الجزء الرابع طبعة جديدة ١٤٦

(٣) النفح الجزء الثاني طبعة ازهرية ٣٤١ — (٤) " " الثاني " ازهرية ٣٤١

وترى صبية بحبات بندق الى ابن رافع نتقع عليه كمثل الجلجل او كرة قد تلثت من صندل

جلوزة من كف ظبي غزل　　رمى بها تحوى كمثل جلجل
او كرة قد تلثت من صندل　　تكسر عن حرير لم تغزل
محمرة فوق بياض يمتلى　　من حسنها المستظرف المستكمل
في مطعم الشهد وعرف المندل (١)

وقال ابو بكر بن القرطبية يشبه الفستق بالصدف الابيض فيه جوهر اخضر :

صدف ابيض نقي　　ذو بهاء ورونـــق
مسفر عن جوهر　　اخضر فيه مطبــق
كل صبغ يعزى الى　　لونه قيل فستقـــي (٢)

اما الصنوبر فيشبهه ابن رافع بجماجم العنبر

يا حسنه في العين من صنوبر　　يحكي لنا جماجما من عنبر
ينفلق عن حب اذا لم يكســر　　صندل ان شئت او معصفر
كمثل اصداف نفيس الجوهر (٣)

اما القسم الثاني فيحتوى على الفاكهة التي لها نوى ولكنه لا يوكل منها :

الرطب والتمر وقد قال محمد ابن شرف القيرواني يشبهها بتوابيت العقيق تمت بالنضار

ومطبوخ بغير وقيد نار　　عزمت على جناه بابتكار
توابيت تبدت من عقيـق　　قد تمت بنــضــار
ترى لصفاء جوهرها نواها　　كالسنة العصافير الصغـار (٤)

وقـــال في التمـــر

اما ترى التمـر يحـكي　　في الحسن للنضـــار
مخازنا من عــقــيـــق　　قد تــمــت بنضار
كانما زعفران　　فيه مع الشهد جارى
يشف مثل كؤوس　　مملوءة مـن عـقـار (٥)

---

(١) النويرى الجزء الحادى عشر ٩٢　(٢) النويرى الجزء الحادى عشر ٩٥
(٣) " " " " ٩٩　(٤) " " " " ١٢٨
(٥) " " " " ١٢٨

ويبدو الزعرور لابن رافع جلاجل مخضوبة او كرات عقيق :

كانما الزعرور لما بـــدا ... في حسن تقدير ومرأى انيـــق
جلاجل مخضوبة عنـــدما ... او خرزات خرطت من عـــقيـق
يضوع من رياه اما هفا ... به نسيم الريح مسك فتيـــق (١)

وقال ايضا : انظر الى زعرورنا المنعوت ... نكهته كالعنبر المفتـــوت
كانه في الوصف والنعوت ... بنادق من احمر الياقـــوت (٢)

ويستهوى الخوخ في اثوابه المخملية انظار ابن القرطبية فيقـــول :

وطيب الريق عذب آب في آب ... وزار مشتملا في زى اعـــراب
في مخمل الثوب لم تحمل براسته ... بين الفواكه من نقص ولا عاب
خالسته نظرى فاحمر من خجل ... ثم انثنى معرضا عني كمـــرتـاب
من اسمه فيه مقلوبا ومبتدئا ... اربى على اللوز في شطريز جلبا ب (٣)

وقال ايضا يشبهه بوجنة غادة خافت الرقيب فنقطت وجهها بحمر البنان :

وثهد ندى مخططة الاعالي ... بحمر كلون الارجـــوان
كوجنة غادة خافت رقيبا ... فنقطتها بحمر البنـــان (٤)

ومما وصف به القراسيا ، وتعرف في الاندلس بحب الملوك :

ودوح تهدل اشطانه ... رعى الدهر من حسنه ما اشتهى
فما احمر منه فصوص العقيق ... وما اسود منه عيون المهـــا (٥)

واما المشمش فقد قال فيه احدهم يشـــبهــه بجلاجل لبذهـــب

كانما المشمش لما بدت ... اشجاره وهو بها يلتهـــب
خضر قباب الملك حفت بها ... جلاجل مصقولة من ذهـــب (٦)

ويجذب لون العناب الاحمر انظار الشعراء فهو تارة وجنات معشوق حمراء ، واخرى خرزات عقيـــق

احبب بعناب بدا انيق ... كمثل لون وجنة المعشوق
او خرز لمت من العقيق ... اوكقلوب الطير في التحقيق
جاءت بها شقراء رأس نيق ... كانما اشتق من الشقيـــق
او كان يسقى بجنى الرحيق ... احلى من السكر في الحلوق
في نكهة العنبر والخلوق (٧)

---

(١) النويرى الجزء الحادى عشر ١٣٧ (٢) النويرى الجزء الحادى عشر ١٣٨
(٣) « « « « ١٤٠ (٤) « « « « ١٤٠
(٥) النفح الجزء الثاني طبعة ازهرية ٢٤١ (٦) « « « « ١٤١
(٧) النويرى الجزء الحادى عشر ١٤٣

وتتدلى اثمار العناب على اشجاره كأقراط الياقوت

كأنما العناب في دوحــــه	لما تناهي حسنه واستتم
اقراط ياقوت تهدت لــــنا	او انمل قد طرفت بالعنم (١)

بقي علينا الان الباب الثالث وهو الذى ليس لثمره قشر ولا نوى وهو يحتوى على العنب والتين والتوت والتفاح والسفرجل والكمثرى والاترج وقد وصفها الشعراء باشكالها المختلفة ولم تتعد اوصافهم الشكل والرائحة واللون . وساكتفي بتقديم امثلة قليلة على بعض هذه الثمار لتكون لدينا صورة عامة عنها ونظرة الشعراء اليها . ولنجعل العنب اولاها وقد وصفها الشعراء كثيرا واهتموا بها لان منها يستخرج الخمر

العـنــب :

قال ابن زيدون وقد اهداه :

قد بعثناه ينفح الاعضاء	حين يجلو بلطفه المحسناء
جاء يزهو بمستشف رقيـق	خدع العين رقة وصـفـا .
تنفذ العين منه في ظرف نور	ملأته ايدى الشموس ضيا .
اكسبته الايام برد هواء	فهو جسم قد صيغ نارا وماء
منظر يبهج القلوب وطعم	يسكر النفس بشهده استمراء (٢)

واما في التين فقد قال ابن خفاجه ويظهر انه كان تينا اسود

يسود الوجوه كلون الصدور	تبسمن تحت عبوس الغبش
اذا ما تعلى بياض الضحى	تطلعن في وجهه كالنمش
كأني اقتطف منه ضحى	ثدى صغار بنات الحبش (٣)

ولما كان للتين عشـــاق كان له مبغضين ايضا فقد قال ابن شرف القيرواني يذمه :

لا مرحبا بالتين لما اتى	يسحب كالليل عليه وشاح
ممزق الجلباب يحكي لنا	هامة زنجي عليها جراح (٤)

---

(١) النويرى الجزء الحادى عشر ١٤٣ (٢) النويرى الجزء الحادى عشر ١٥٢
(٣) " " " " ١٥٩ (٤) " " " " ١٦٠

ولا يذكر اللون الاحمر الا بالجراح

انظر الى توت الجنان الذى | وانى به الناطور في جسام
يحكي جراحا دمها سائل | لدى جسم من بلى حسام (١)

وقد قال بعض الاندلسيين وقد اهداه

ناهديته غضا حكى صدق المها | لمنظر بالحسن منه يروق
فذا سبج لطا يرى باسوداده | وذا الاحمرار اللون منه عقيق (٢)

التفـــــــاح

كثر التفاح في الاندلس كما رأينا وقد كان يتهاداه الخلفاء والامراء وعامة الناس وقد قال احد الشعراء في هدية تفاح نصفها احمر والنصف الثاني اصفر وقد شبهما شاعرنا بخدود حمر بعضها وجل الفراق

خدود حمـــر وافينا صبا | وعدن على ارتماض باحتراق
نحمر بعضها خجل التلاقي | ويصفر بعضها وجل الفراق (٣)

وقال صفوان ابن ادريس يصف تفاحة في ماء

ولم ار قبط تشتهي العين منظرا | كتفاحة في بركة بقرار
ينهض عليها ماؤها فكانهـــا | بقية خد في اخضرار عذار (٤)

وقال ابن زيدون وقد اهدى تفاحا ولم يختلف معناه وتشبيهه عمن سبقه فيحمر التفاح كوجه الحبيب خجلا ويصفر وجلا

اتتك بلون الحبيب المخجــل | تخالط لون المحب الوجــل
ثمار تضمن ادراكها | هواء احاط بها معتــدل
تاتي لتدريج تلطيفهـــا | فمن حر شمس الى برد ظل
الى ان تناهت شفاء العليــل | وانس الخليل ولهو الغــزل
فلو تجمد الراح لم يعدهـــا | وان هي ذابت فراح يجل
فبولكها نعمة عفــــــــــــة | ونقل بما جئته مستـــحل (٥)

وتختلف الصور عند ابن سعيد فهي تارة حسناء جاءته في حلة بيضاء مشرقة في حمرة كاتقاد النار وطورا خمرة مزجت بالماء ، او نصف لؤلؤة اتصلت بياقوتة حمراء

---

(١) النويرى الجزء الحادى عشر ١٦٢ (٢) النويرى الجزء الحادى عشر ١٦٢
(٣) قلائد العقيان ١٤٢ (٤) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٥٩
(٥) نهاية الارب الجزء الحادى عشر ١٦٥

بديعة اللون من نور السرور بها ... في كل حسن وطيب يضرب المثل
جاءتك في حلة بيضاء مشرقة ... في حمرة كاتقاد النار تشتعل
او قهوة مزجت او نصف لؤلؤة ... بنصف ياقوتة حمراء تتصل (١)

واشتهر تفاح الاندلس بحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء فقال احدهم يصف اريج التفاح

مجال العين في ورد الخدود ... يذكر طيب جنات الخلود
وأرجة من التفاح تزهو ... بطيب النشر والحسن الفريد
اقول لها نضحت المسك طيبا ... فقالت لي بطيب ابي الوليد (٢)

السفرجل

جمعت السفرجلة في نظر الشاعر الاندلسي اربعة صفات جميلة

سفرجلة جمعت اربعا ... تظمن لها كل معنى عجيب
صفاء النضار وطعم العقار ... ولون المحب وريح الحبيب (٣)

وتتراءى السفرجلة لآخر كحسناء تختال في ثوب صنع من السندس، وقد تعطرت بمسك ذكي، ويذكره لونها الاصفر بلون محب الذى قد تمني بحلة من السقم

ومصفرة تختال في ثوب سندس ... وتعبق عن مسك ذكي التنفس
لها ريح محبوب وقسوة قلبه ... ولن محب حلة السقم قد كسي (٤)

من هذه الفاكهة الاجاص فقال ابن بطال الاندلسي يصفه

بعثت ماة يندر لكنه ... في وصفه الناعت لم يبصر
جيشا من الزنج ولكنه ... جيش متى يلقى العدا تهقهر
يغني لك الصفراء مهزومة ... والزنج اعداء بني الاصفر (٥)

ولقد وصف الشعراء ثمر الاترج وقد اعجبها لونها الاصفر ورائحتها الذكية فقال علي بن سعيد الاندلسي

ومصفرة اللون لا من هوى ... تكابد منه علاقات هسم
ولكن كساها سموم الهجير ... جلابيب تبر بتضريج دم
واكسبها طيب نشر العبير ... وريح الحبيب اذا ما يشم
عروس تزف الى شامها ... على كف اغيد مثل الصنم (٦)

ولعل اجمل ما قيل في وصف هذه الثمرة قول ابو بكر بن القرطبية حين قال يصفها

ججسم من النور في ثوب من النار ... كانه ذهب من فوق بلار
وابيض باطنه واصفر ظاهره ... كانه درهم من تحت دينار (٧)

---

(١) النويرى جزء ١١ ص ١٦٦ (٢) النفح جزء (٢) ازهرس ٣٥٠ (٣) النويرى جزء حادى عشر ١٧٠
(٤) " " " " ١٧٠ (٥) النويرى جزء (١١) ١٣٦ (٦) " " " " ١٨١
(٧) " " " " ١٨٣

ولم يكتف الشعراء بوصف الثمار فقط بل تعرضوا الى وصف الاشجار . قال ابن خفاجه يصف شجرة منورة :

يا رب مائسة المعاطف تزدهي	من كل غصن خافق بوشاح
مهتزة يرتج من اعطافهـــا	ما شئت من كفل يموج رداح
نفضت ذوائبها الرياح عشية	فتملكتها هزة المرتاح
حط الربيع قناعها عن مفرق	شمط كما ترتد كاس الراح
لفاء حاك لها الغمام ملاءة	لبست بها حسنا قميص صباح
نضح الندى نوارها فكانما	مسحت معاطفها يمين سماح
ولوى الخليج هناك صفحة معرض	لثمت سوالفها ثغور اقاح (١)

وقال ابن خفاجه ايضا :

وسرحة خاض منها ظلها نهرا	اوفت عليه فلم تنقص ولم تزد
كما تدانيت من ثغر لمرتشف	ثم انثنيت فلم تصدر ولم ترد
كان افنانها طيب حي ملك	اغضى واعطى فلم يوعد ولم يعد (٢)

وقال آخر يخاطب شجر السرو

ايا سرو لا يعطش منابتك الحيا	ولا يذعن اعطافك الخضر النضر
لقد كسيت منك الجذوع بمثل ما	تلف على الخطى راياته الخضر (٣)

وهنالك امثلة كثيرة في وصف الاشجار ولكنني ساكتفي بهذا القدر القليل في الوقت الحاضر .

---

(١) ديوان ابن خفاجه ٣٩ (٢) ديوان ابن خفاجه ٤٣ ٤٦

(٣) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٤١

٢ المنتزهات

كثرت الحدائق والرياض في الاندلس كما تقدم حيث كان يخرج اليها الناس ليتسامرون ويتجاذبون اطراف الحديث بقرب جدول ماء وتحت ظلال الاسجار ، ويرجع الفضل في ازدهار هذه الرياض وانتشار هذه المنتزهات الجميلة الى الخلفاء والامراء الذين اظهروا ولعا خاصا في هذه الناحية فشيدوا القصور الفخمة تحيط بها الجنائن والحدائق الرائعة وبنوا المنتزهات الخاصة والعامة كما ابتنى عبد الرحمن الناصر قصر الرصافة ومنتزهاته (١) حاذيا حذو رصافة جده بارض الشام وقد كان قصرا حسنا تحيط به اندر الازهار واثمن الاثمار وقد كان كثير التردد اليه يسكنه اكثر اوقاته . وكما فعل الناصر (٢) ببنائه لمدينة الزهراء للتنزه والسكن وكانت بمثابة منتزه يؤمه الناس للتنزه والترويح عن النفس . والزاهرة تشهد على عظمة المنصور ابن عامر حينما " سما الى ما سمت اليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة الموصوفة بالقصور الباهرة واقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الاعظم (٣) " واطلق بساحتها الارجاء ثم اقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المشيدة ... وتنافس الناس بالنزول باكنافها والحلول باطرافها للدنو من صاحب الدولة وتناهى الغلو في البناء حوله حتى اتصلت ارباضها بارباض قرطبة وكثرت بحوزتها العمارة (٤) " واشتد ملك محمد ابن ابي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسع مع الايام في تشييد ابنيتها حتى كملت احسن كمال وجاءت في نهاية الجمال نقاوة بناء وسعة فناء واعتدال هواء رق اديمه وصقالة جو اعتل نسيمه ، ونضرة بستان وبهجة للنفوس فيها افتنان (٥)

وكثرت المنتزهات في قرطبة وضواحيها ، وقد بنى بنو امية قصر الدمشق في قرطبة " وتفننوا في بنائه وتنميق ساحاته واتخذوه ميدان مراحهم ومضمار افراحهم وانشراحهم وحكوا به قصرهم بالمشرق (٦) وقد انشد فيه ابن عمار بعد ان تنزه فيه هذه الابيات وينسبها البعض للمصحفي :

كل قطر بعد الدمشق يذم	فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نميـــر	وثرى عاطر وقصر اشــم
بت فيه والليل والفجر عندى	عنبر اشهب ومسك احم (٧)

---

(١) النفح الجزء الرابع المجلد الاول طبعة جديدة ١٢٢ (٢) النفح مجلد اول جزء ٤ ٢٧٣
(٣) " " الخامس " " " " ٨٦ (٤) " " " " " ٨٧ – ٨٨
(٥) " " " " " " ٩٠ (٦) " " " " ٤ ١٣٠
(٧) " " " " " " ١٣١

وهنالك منتزه يعرف " بمنية الزبير " ابن الملثم عم ملك قرطبة وهو بستان جميل تجرى فيه الانهار وتكثر الانوار والازهار وقد قال فيه ابن بقي يذكره بالخير :

سقى الله بستان الزبير ودام في ... ذراه مسيل النهر ما غنت الورق
نكائن لنا من نعمة في جنابه ... بكثرة الخضراء طالعها طلــق
خهو الموضع الزاهي على كل موضع ... اما ظله ضاف اما ماؤه دفــق
اهيم به في حالة القرب والنوى ... وحق له مني التذكر والعشــق
ومن ذلك النهر الخلوق فؤاده ... بقلبي ما غبت عن وجهه خـفـق (١)

وهذا يدل على مقدار حب الاندلس لهذه المنتزهات الجميلة . ومن القصور المقصودة للتنزه ايضا القصر الفارسي (٢) ومن المنتزهات المشهورة مرج الخز (٣) ولقد قال فيه الشعراء الشيء الكثير وهنالك فحص السرادق وهو من منتزهات قرطبة المشهورة وهو " مقصود للفرجة يسرح فيه البصر وتبتهج فيه النفس وقد قال فيه الاصم القرطبي (٤) :

الا فدعوا ذكر العذيب وبارق ... ولا تساموا من ذكر فحص السرادق
مجر ذيول الشكر من كل مترف ... ومجرى الكؤوس المترعات السوابق
ايا طيب ايام تقضت بروضة ... على لمح غدران وشم حــدائق
اذا غردت فيها حمائم دوحها ... تخيلتها الكتاب بين المهارق (٥)

وهنالك منتزهات كثيرة جميلة منها المصلى ، ووادى العقيق ، والمرج النضــير ، وادى الدبــر ، وبطحاء عبدون والعقاب وعين شهدة وغيرها . ولولا خوفي على القارئ من الملــل لذكرت جميع هذه المنتزهات الخلابة التى ضاقت بها الاندلس وخلدها الشعراء بقصائدهم .

وكانت هذه المنتزهات ملجأ امينا لطلاب المتعة ورواد اللهو والسرور يذهبون اليها مع حبيباتهم وخلانهم يقضون النهار في لهو ومرح وقد صور لنا ابن عبود الرياحي يوما من هذه الايام الجميلة بموشحة لطيفــة :

بالله يا حبيبي ... اترك ذا النفــار
واعمد ان تطيب ... في هذا النهــار
واخرج معي للوادى ... نشرب العقار
نتمم نهارنا ... في لـذة وطيــب
في الارجا والا ... في المرج الخصيب

---

(١) نفح مجلد (١) جزء ٤ طبعة جديدة ١٣٠ (٢) نفح مجلد (١) جزء ٤ طبعة جديدة ١٣٨
(٣) " " " " " ١٣٧ (٤) " " " " " ١٣٨
(٥) " " " " " ١٤١

دور

اوعند النواعيـــر	والروض الشـريـــق
اوقصر الرصافـــة	او وادى العقيق
رحيق والله دونـــك	هو عندى الحـريق
ولي حبك احسبت	في اهلي غـريـــب
وما الموت عندى	الا حين تغـيــب (١)

ولا عجب اذا ان يظل صاحبنا مسرورا مبتهجا ما دام قد اجتمع لديه الماء والخضراء والشكل الحسن ولله در الشاعر حين قال :

ثلاثة تقضب عن النفس الحزن الماء والخضراء والشكل الحسن .

وهنالك شعراء لم يكتفوا بقضاء النهار في هذه المنتزهات بل كانوا ياتون الليل في سمر وقرض الشعر . وقد بات ابو الحسن بن سعيد مع اولاده في حوز مؤمل في جنة له هنالك على ما يبيت عليه اهل الظرف والادب فقال في ذلك :

رعى الله ليلا لم يرع بجذم	عشيته وارانا بحوز مؤمل
وقد نفحت من نحو نجد اريجة	اذا نفحت هبت بريا القرنفل
وغرد قمرى على الدوح وانثنى	قضيب من الريحان من فوق جدول
يرى الروض مسرورا بما قد بدا له	عناق وضم وارتشاف مقبـــل (٢)

فقالت مجيبة

لعمرك ما سر الرياض بوصلنا	ولكنه ابدى لنا الغل والحسد
ولا صفق النهر ارتياحا لقربنا	ولا غرد القمرى الا لما وجـد
فلا تحسين الظن الذى انت اهله	في صوغ كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الافق ابدى نجومه	لامر سوى كي ما تكون لنا لا رصد (٣)

وهذا شاعر آخر يذكر منتزه الحوز وينصح الذاهب اليه ان يؤمه في الصباح قبل ارتحال الندى[٣] وان ياخذ معه المغني والراح

عرج على الحوز وخيم بـــه	حيث الاماني ضافيات الجنـــاح
واسبق له قبل ارتحال الندى	ولا تزره دون شاد او راح

ان هذه البلاد الجميلة العذبة هي التي طبعت ابناءها على حب اللهو وطلب المتعة ، فقد كان على بن محمد بن شفيع البسطي يقول " لو طبعت على الزهد لحملني حسن بلادى على المجون والتمشق والراحات (٤) فلا عجب اذا ان نرى منتزهات الاندلس ملأى بمجالس الطرب والشراب يتسابق اليها الامراء والخلفاء قبل عامة الشعب وكانت تزدان هذه المجالس بالنكات الادبية والظرف الجم يتناشد فيها الشعراء فيها عيون الشعر بل كثيرا ما كانوا يرتجلون القصائد البليغة حتى ان

الكثير من هؤلاء الشعراء كانت لا تهيج قرائحهم الا اذا جلسوا الى الشراب فقال احدهم يشرب يصف المنتزه الذى جلس فيه :

هات المدام فقد ناح الحمام على ... فقد الظلام وجيش الصبح في غلب
واعين الزهر من طول البكا رمدت ... فكحلتها يمين الشمس بالذهب
والكاس حلتها حمراء مذهبة ... لكن ازرتها من لؤلؤ لا الحبب
كم قلت للافق لما ان بدا اصلفا ... بشمسه عندما لاحت من الحجب
ان تهت بالشمس يا افق السماء فلي ... شمسان نديمي وابنة العنب
قم اسقينيها وثغر الصبح مبتسم ... والليل تبكين عين البدر بالشهب
والسحب قد لبست سود الثياب وقد ... قامت لترثيه الاطيار في القضب (١)

وقال آخر يطلب الشراب في هذه المجالس ولعل اللؤلؤ المنثور وثوب الذهب هما اللذان دفعا به الى الشراب :

قم اسقينيها وليل الهم منهزم ... والصبح اعلامه محمرة العذب
والسحب قد نثرت في الارض لؤلؤها ... تضمن الشمس في نوله ثوب من الذهب (٢)

واجتمع ابو جعفر مع ابن سيد في احدى هذه المنتزهات وقد جلسا للشراب ، فقال ابو جعفر وقد قاربت الشمس للغروب ومد لها في النهر معصم مخضوب

انظر الى الشمس قد القت على الارض خدا

فقال ابن سيد : هي المراة لكن ... متى يمدها الافق يصدا
فقال ابو جعفر: مدت طرازا على النهر ... عندما لاح بردا
فقال ابن سيد : اهدت لطرفك منه ... فللأكارم يهدى
ابو جعفر: درع اللجين عليه ... سيف من التبر مدا
ابن سيدا : فاشرب عليه هنيئا ... وزد سرورا وسعدا !

في النهر والى النجوم قد طلعت فيه فقال ابن سيد :

اخلع على النهر ثوب الكرى فذلك واجب

ابو جعفر : وانظر الى السرج فيه ... كالزهر ذات الذوائب
وحين صفق للافق ... نقطته الكواكب

فقبل له ابن سيد راسه وقال ما تركت بعد هذا مقالا لقائل ثم جعلوا يشربون فقال ابو جعفر

اسقيني والافق برد ... بنجوم الليل معلم

ابن سيد : وبساط النهر منها ... وهو فضي مدرهم

---

(١) النفح الجزء الاول الطبعة الازهرية ٣٧٩ (٢) النفح الجزء الاول طبعة ازهرية ٣٨٠

فقال ابو جعفر: وبساط الليل مرخى والشذا بالليل قد نسم
ابن سعيد: والندى في الزهر منثو رعلى عقد منظم
ابو جعفر: والصبا جرت على مبت الطلى كف ابن مريم
ابن سعيد: كان مبهوتا فلما نفخت فيه تكلم
ابو جعفر: وكان الكاس والقهوة دينار ودرهم
وبلا ابن سعيد وبدا الدف يناغي العود والمزمار هم
ابو جعفر فاذاع الانس منا كل ما كان مكتم

ولما طلع الفجر قال ابو جعفر:

نثر الليل عقوده ونضا الليل بروده
ابن سعيد وبدا الصبح بوجه مطلع فينا سعوده
ابو جعفر فغدا ينشر لما نثر الليل بسنود ه
ابن سعيد فهلم اشرب وقبل من غدا ينطق عود ه (١)

ولا يقدر ابن حمديس ان ينسى طبيعة بلاده لحظة واحدة حتى ولا الخمر تقدر ان تفصله عنها ، فهو يحب الطبيعة في كل وقت وللطبيعة سحر ودلال وللطبيعة روعة وجمال ولا يطيب له الخمر الا في جوها الاخاذ

طرقت والليل ممدود الجناح مرحبا بالشمس في غير صباح
فالقضيب اهتز والبدر بدا كابن ماء ضم للوكر جناح
وكان الغرب منها ناشق باقة من ياسمين او اقاح
وكان الصبح ذا الانوار من ظلم الليل على الظلماء لاح

فكل ما في هذا الكون الجميل قد تحرك وثار وبدت زينته ، افلا يحق للانسان ان يقبل على الخمر ليطرب مع هذا العالم الطروب ؟؟

في حديق غرس الغيث به عبق الارواح موشى البطاح
تعقل الطرف ازاهير به ثم تعطيه ازاهير صراح
ارضع الغيم لبدنا بسانه فتربت فيه قامات الملاح
كل غصن تعترى اعطافه رعدة النشوان من كاس اصطباح

ولم يختلف ابن خفاجه شاعر الطبيعة عن زميله ابن حمديس ، واليك هذه المقطوعة الجميلة يصف الطبيعة في رحاب الخمر فيقول :

النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٤٤٥

تدى النسيم لنا ارق واعطرا ... وهفا القضيب لنا اغض وانضرا
نزفتها بكرا اذا تبسلتها ... القت على وجهي قناعا احمرا
ونزلت بين قميص نيم هلهل ... ورداء شمس قد تمزق اصفرا
والريح تنخل من رذاذ لؤلؤا ... رطبا وتفتق من غمام عنبرا (١)

فقال آخر يطلب الشراب :

قم يا نديم ادر على القرقفا ... او ما ترى زهر الرياض مفوفا
فتخال محبوبا مدلا وردها ... وتظن نرجسها محبا مدنفا
والجلنار دماء قتلى معرك ... والياسمين حباب ماء قد طفا (٢)

وكن مقيما منه حيث الصبا ... تمتاز مسكا من اريج البطاح
والقضب مال البعض منها على ... بعض كما يثني القدود ارتياح
وشق جيب الصبر قصف اذا ... شقت جيوب الظل منه الرياح
لم احص كم ناديته ثابتا ... واسترقصتني الرواح عند الرواح (٣)

وهذه المنتزهات عند البعض معاهد للحسن ومواطن للجمال وملتقى الانس والبهجة حيث تسجع فيها الطيور وتتجلى فيها البدور

واين معاهد للحسن فيها ... وللانس التقاء البهجتين
وللاوتار والاطيار فيها ... لدى الاسحار اطيب سلجعين
فكم بدر تجلى من رباها ... ومن بطحائها في مطلعين
والغيد يرتمي من تلعتيها ... ومن ثمر القلوب بمرتعين
اذا هوى لسوسنه يمينا ... عجبت من التقاء السوسنين
وكم يوم توشح من سناه ... ومن زاهرتها في حليتين
وراح اصيلة من بين تسهر ... ودولاب يدور بمسمعين
بنهر كالسماء يجول فيه ... سحائب من ظلال الدوحتين
تدرع للنواسم حين هزت ... عليه كل غصن كالرديين
ملاعب في غرامي عند ذكرى ... صباه وعقله المتلاعبين (٤)

وكثيرا ما كانت هذه المنتزهات تثير في قلب الشاعر عواطف كامنة فيهدهدها على اوتار الشعر الجميل بنغمة سحرية طيبة . فيقول ابو الوليد الجنان بن الطب بانة الوادى :

---

(١) ديوان ابن خفاجه (٢) النفح الجزء الاول الطبعة الازهرية ٣١٤
(٣) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٠٠ (٤) " " الثاني " " " ٣٤٢

يا بانة الوادي اذا انظرت تلك المعاطف حيث الشيح والغار
فعانقيها عن الصب الكئيب فما له على معانقة الاغصان انكار
وعرفيها باني فيك مكتئب فبعض هذي لها بالحب اخبار
وانتم خيرة الجرعاء من اخم لي في حماكم احاديث واسمار
وانتمو انتموني كل آونة وانما حبكم في الكون اطوار
ويا نسيما سرى تحدو ركائبه لي بالغدير لبانات واوطار (١)

فلا عجب اذا ان يتحرق ابن القرطبي ويتشوق الى المنتزهات القرطبية عندما كان في مراكش وتسمى القصيدة عند اهل الاندلس "كنز الادب" ومنها يقول :

مسارح كم بها سرحت من كمد قلبي وطرفي ولا سلوان يثنيني
بين المصلى الى وادي العقيق - وما - يزال شل اسم عنه بان يبكيني
الى الرصافة فالمرج النضير فسوا دي الدير فالمعطف من بطحاء عبدون
لباب عبد سقته السحب وابلها فلم يزل بكؤوس الانس يسقيني
لا باعد الله عيني عن منازهه ولا يقرب لها ابواب جيرون

ومنها يتطلب الشاعر ان يكون له عمر نوح ومال قارون :

قطر فسيح ونهر ما به كدر حفت بشطيه الفاف البساتين
ياليت لي عمر نوح في اقامتها وان مالي فيه كنز قارون
كلاهما كنت انفيه على نشوا ت الراح نهبا ووصل الحور والعين (٢)

ولابن زيدون قصيدة طويلة في ذكر منتزهات قرطبة ومغانيها مطلعها

خليلي لا فطر يسر ولا اضحى فما حال من امسى مشوقا كما اضحي

ومن اجمل ما قيل في هذه المنتزهات هذه القصيدة البليغة تعطيك صورة واضحة شاملة عن جمال هذه المنتزهات وبهائها والتي سأجعلها مسك ختام هذا الفصل

ابدت لنا الايام زهرة طيبها وتسربلت بنضيرها وقشيبها
واهتز عطف الارض بعد خشوعها وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت في عنفوان شبابها من بعد ما بلغت (عتي) مشيبها
وقفت عليها السحب وقفة راحم فبكت لها بعيونها وقلوبها

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الرابع الطبعة الجديدة ٣٢٠ - ٣٢٢

(٢) " " " الخامس " " ٢٣٠

تعجبت للازهار كيف تضاحك ... ببكائها وتبشرت بقطوبها
وتسربلت حللا تجر ذيولها ... من لومها فيها وشق جيوبها
فلقد اجاد المزن في انجادها ... واجاد حر الشمس في تربيبها
ما تصنف الخيرى يمنع طيبها ... لحضورها ويبحه لمغيبها
وهي التي قامت عليه بدائنها ... وتعاهدته بدرها وحليبها

ومنها

وعلى سماء الياسمين كواكب ... ابدت ذكاء العجز عن تغييبها
زهر توقد ليلها ونهارها ... وتفوت شاو خسوفها وغروبها
فضلت على سهر النجوم باسرها ... وسرورها في الخافقين وطيبها
فتفارجت ارجاؤها بهبوبها ... وتعانقت ازهارها بنكوبها
وتصوبت فيها فروع جدا ول ... تتصاعد الابصار في تصويبها
تطفو وترسب في اصول ثمارها ... والحسن بين طفوها ورسوبها

ومنها

او ما ترى الازهار وما من زهرة ... الا وقد ركبت لغار قضيبها
والطير قد خفقت على اقنانها ... تلقى فنون الشدو في اسلوبها
تشدو وتهتز الغصون كانما ... حركاتها رقص على تطريبها (١)

---

(١) قلائد العقيان ٢٢٥ ـ ٢٢٦

المـــــاء

١ - الجداول والانهار - السواقي والغدران

بطاح خضراء يانعة وسفوح تنمنمها الازاهر ، وادواح ملتفة رقص الطير على اغصانها .
وانهار تنفجر من اعالي الجبال بصخب وزمجرة الى جداول رقراقة تتهادى وتتمايل مخترقة المروج الخضراء كالحملان الوديعة الى اخرى تتعطف وتتلوى كالاراقم . وترسل الشمس اشعتها فتغلها بغلالة ذهبية رقيقة ، والقمر يضفي سناء مطوقا فيكسبها جلالا وروعة . وتحنو الاشجار على الضفاف فتميل وتنثني مداعبة وتضحك الزهور والاقاحي على الجوانب مسرورة مبتهجة . وامام هذه الفتنة الصارخة وهذا الجمال الاخاذ لا يتمالك الشاعر الاندلسي الا ان يصرخ من اعماق قلبه :

تلك المنازل والملا	عب لا اراها الله محلا
حيث التفت رايت ما	. سائحا ورايت ظلا
والنهر يفصل بين زهـــــــــر	الروض في الشطين فصلا
كبساط وشي جرّدت	ايدي القيون عليه نصلا (١)

جزيرة احدقت بها البحار فاكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جانب وكثرت بها الانهار والعيون حتى قال ابن اليسع "ولا يذود فيها احد ما حيث سلك لكثرة انهارها وعيونها وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد اربع مدائن ومن المعاقل والقرى ما لا يحصى وهي بطاح خضر وقصور بيض (٢)" ومن انهارها العظيمة نهر اشبيلية كما جاء في النفح فليس في الارض اتم حسنا من هذا النهر ، يضاهي دجلة والفرات والنيل . وكانت القوارب تسير في هذا النهر للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الاطيار اربعة وعشرين ميلا ويتعاطى الناس السرح من جانبيه عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وابراج مشيدة وفيه من انواع السمك ما لا يحصى (٣)

ولعل احسن ما قيل في وصف الاندلس هو شعر ابن سفر المريني اذ يقول :

في ارض اندلس يلتذ نعماء	ولا يفارق فيها القلب سرّاء
انهارها فضة والمسك تربتها	والخزّ وجنتها والدرّ حصباء
وللهواء بها لطف يرق به	من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا	ولا انتثار لآلي الطل انداء
وانما ارج الندّ استثار بها	في ماء ورد فطابت منه ارجاء

(١) النفح المجلد الاول الجزء الاول الطبعة الجديدة ٧٢
(٢) " " " " " " ٨٣
(٣) " " " " " " ٨٣

الى ان يقول :

قد ميّزت من جهات الارض حين بدت ... فريدة وتولّى ميزها الماء

دارت عليها نطاقا ابحر خفقت ... وجدا بها اذ تبدت وهي حسناء

بذاك يبسم فيها الزهر من طرب ... والطير يشدو وللاغصان اصغاء

فيها خلقت عذارى ما بها عوض ... فهي الرياض وكل الارض صحراء (١)

ومما هو جدير بالذكر ان الاندلس معدومة الصحارى

وترى شغف الاندلسي بطبيعة بلاده قول ابن اللبانة يصف مدينة ميورقة بمائها الجارى من غير توقف ، وقد اصبحت هذه المياه بنظره خمرا ·

بلد اعارته الحمامة طوقها ... وكساه حلة ريشه الطاووس

فكأنما الانهار فيه مدامة ... وكأن ساحات الديار كؤوس (٢)

نعم لقد فتح هذا الجمال الطبيعي الخلاب مجالا واسعا لشعرائنا فوصفوا وابدعوا في الوصف ، ولعل الفضل يرجع في الدرجة الاولى الى جمال هذه المناظر البديعة التي الهبت الشعور وحركت القرائح والتي هي جديرة بان تخلق الشاعرية خلقا في نفوس هؤلاء الشعراء · فلقد كانت مهمة الشاعر الاندلسي الرئيسية مهمة المصور البارع فهو يهيم في الطبيعة ويحسها احساسا عميقا يعبر عنه بريشة سحرية ، يستعير الوانها من لجين الماء وذهب الاصيل وظلال الاشجار وبياض الحباب وزرقة السماء وحمرة الاثمار · فيجمع شاعرنا هذه الالوان ويمزجها مزجا فنيا في قصيدة وصفية رائعة كما فعل ابن صارة الاندلسي اذ يصف نهرا رقراقا ينساب بتؤدة ، ويتلوى في منعطفات ومنعرجات مختلفة ، حيث يقل ماؤه فترق غلالة خصره

والنهر قد رقت غلالة خصره ... وعليه من صبغ الاصيل طراز

تترقرق الامواج فيه كأنها ... عكن الخصور تهزها الاعجاز (٣)

ويقف شاعر آخر امام هذا النهر فتختلف نظرته اليه ويختلف تشبيهه ، فغلالة هذا النهر من فضة ، وهذا النهر متقلب لا يستقر على طريقة واحدة او اسلوب واحد في الجرى ، فتارة يجرى سيلا فيتبغر الثوب من فضة الى نضار ، وتارة يستقيم في جريه فيصبح صفحة منصل واخرى يستدير متخذا شكل عطف السوار

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الاول الطبعة الجديدة ٨٧

(٢) الطبيعة في الشعر العربي ـ نوفل ٢٦٠

(٣) النفح المجلد الاول الجزء الرابع ٢٠٤

والنهر مكسوّ غلالة فضة ... فاذا جرى سيلا فثوب نضار
واذا استقام رايت صفحة منصل ... واذا استدار رايت عطف سوار (١)

وشبهه آخر بالمجرّة

والنهر مثل المجرّ صفا به ... من الندامى كواكب زهر (٢)

ومما يلفت النظر ان الشعراء اكثروا من تشبيهات المياه بالمعدات الحربية . فالنسائم وما تتركه فوق المياه من غضون وتجاعيد شبهوها بالدروع ، كما اكثروا من تشبيه الانهار بالمهند المصقول في حال عدم مرور النسيم فوقه . ولعل الحروب الكثيرة والثورات المتواصلة في بلادهم اثرت في نفوسهم وعقليتهم وجعلتهم ينظرون الى المعدات الحربية كشيء جميل يجب على الانسان ان يفتخر به ويتشبه به لان بواسطتها كانوا يحمون بلادهم ويحافظون على مجدهم وعزهم من كيد العدوّ . ومن هذه التشبيهات :

لله بهجة منزه ضربت به ... فوق الغدير رواقها الانسام
فمع الاصيل النهر درع سابغ ... ومع الضحى يلتاح منه حسام (٣)

وهنا يمر النسيم فوق هذا النهر فيصبح النهر كالدرع الواسع بينما يصنع الحباب له زردا

مررنا بشاطي النهر بين حدائق ... بها حدق الازهار يستوقف الحدق
وقد نسجت كف النسيم مفاضة ... عليه وما غير الحباب لها حلق (٤)

ولابن العطر في هذا المعنى يصف غديرا :

هبت الريح بالعشيّ فحاكت ... زردا للغدير ناهيك جنة
وانجلى البدر بعد هدء فصاغت ... كفة للقتال منه اسنة (٥)

وفي الابيات الآتية يشبه ابن العطار النهر وقد وقع عليه الظل بالقراب ، والقسم المكشوف بالسيف :

ركبنا على اسم الله نهرا كأنه ... حباب على عطفيه وشي حباب
والا حسام جال فيه فرنده ... له من مديد الظل اى قراب (٦)

ولابن مالك في المعنى ذاته ايضا :

ورب يوم وردنا فيه كل منى ... وقل في مثل ذاك اليوم ان نردا
في روضتين بشاطي سلسل شبم ... كما اجتليت من المحبوب مفتقدا
يبدو القطر في اثنائه حلقا ... فتنظم الريح من فوقه زردا (٧)

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الرابع ٢٠٤ - ٢٠٥
(٢) " الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٠٨
(٣) " المجلد الاول الجزء الخامس الطبعة الجديدة ٢٦٦ - ٢٦٧
(٤) " " " الثاني " " ٢٦٥
(٥) قلائد العقيان ٢٨٤
(٦) " " ٢٨٣
(٧) النفح المجلد الاول الجزء الثاني الطبعة الجديدة ٢٦٢

ويسترعي جرى المياه في ناحية اخرى انتباه شاعر آخر فيشبهها بانسياب الاراقم فيقول اذ يصف جلسة جميلة :

في حيث تنساب المياه اراقما   وتعيرك الافياء برد ظلالها (١)

وقال اخر :

انظر الى الماء كيف انحط في صببه   كأنه ارقم قد جدّ في هربه (٢)

ان هذه البلاد الجميلة التي اضواؤها طبق المنى وهواؤها يشتاقه الولهان اثرت في طبع اهله ودمثت اخلاقهم واصبحوا يعشقون الجمال ويميلون الى اللهو والمرح ويقول شاعرهم في هذا القطر الجميل :

اضواؤه طبق المنى وهواؤه   يشتاقه الولهان في الاسحار
والطبع معتدل فقل ما شئته   في الظل والازهار والانهار (٣)

ولذلك فكثيرا ما كان اهل الاندلس يخرجون الى هذه الانهار والغدران والبحيرات وما احتواها من بساتين ورياض يقضون ~~صبحياتهم وامسياتهم~~ اوقاتهم ويمضون صبحياتهم وامسياتهم على ضفاتها يمرحون ويلهون وكثيرا ما كانت تستهوى هذه المناظر الخلابة طلاب المتعة واللذة ان يقضوا اياما يتعاطون الشراب ويتقارضون الشعر ويصحبتهم القيان والمغنون فيستمعون الى انغام مغنيتهم تارة والى شدو الطيور وخرير المياه اخرى .

وقال ابن سراج في ذلك وقد خرج مرة مع خلان له الى ضفاف احد الانهر فقضوا يومين على ضفافه في احسن عيش يتعاطون الشراب ويتقارضون الشعر :

رعى الله فتيانا انست بقربهم   على جدول للماء فيه خرير
اقمنا به يومين في خفض عيشة   ولا عيش الا قهوة وغدير
تدور القوافي بيننا نستحثها   وكأس الحميّا بالسرور تدور
وفي الشجرات الخضر منه رقيبة   لنغمتها بين الضلوع هدير
اذا ما تغنت نوقنا قلت قينة   تلاها بصوت مثلثان وزير
سبتني بصوت لو يباع اشتريته   بما مرّ من عمرى وذات يسير (٤)

وقال في احدى هؤلاء القيان وهي تغني على جرية ماء وهم يشربون ويلهون :

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٠٥
(٢) " المجلد الاول الجزء الاول ٦٠
(٣) " الجزء الثاني ٢٠٩
(٤) الذخيرة القسم الاول المجلد الثاني ٢٧٠

ومسمعة تغنّينا ارتجالا　　وتعجبنا بنغمتها دلالا

وبين اكفنا جمر وماء　　اذا ما سال خلت الدرّ سالا (١)

وقال ابن السراج ايضا : "كنت يوما على جرية ماء في موضع حسن يحار فيه الطرف ويقصر عنه الوصف واقمنا هنالك اياما في اطيب عيش واظرف منظر" (٢)

شربنا على ماء كأن خريره　　خرير دموعي عند رؤية ازهر

حلفت بعينيها لقد سفكت دمي　　باطراف فنان والحاظ جؤذر (٣)

وازهر هذه هي حبيبته ٠

ووصف احدهم منظرا جميلا ، يتخلله نهر ، وقد طوقته الازهار التي بللتها الانداء ، وكست الشمس الارض الخضراء بغلائل ذهبية وقد جلس واخوات له للهو والطرب والشراب :

قم فاسقني والرياض لابسة　　وشيا من النور حاكه القطر

والشمس قد عصفرت غلائلها　　والارض تندى ثيابها الخضر

والنهر مثل المجرّ حف به　　من الندامى كواكب زهر (٤)

وفي جلسة لهو ومتاع قال شاعر آخر :

عطف القضيب مع النسيم تميلا　　والنهر موشى الخمائل والحلى

تركته اعطاف الغصون مظللا　　ولنا عن النهج القديم مضللا

امسى يغازلنا بمقلة اشهل　　والطرف اسحر من تراه اشهلا (٥)

وركب احدهم نهرا فوصف عبوره النهر مشبها سطح النهر بالسماء وحبابه بالنجوم ، وظلال ادواحه الكثيفة الملتفة على جوانبه بالبرد وخيوط الشمس الذهبية المتسللة خلال هذا الرداء بالوشي والرقوم :

عبرنا سماء النهر والجو مشرق　　وليس لنا الا الحباب نجوم

وقد البسته الايك برد ظلالها　　وللشمس في تلك البرود رقوم (٦)

وركب ابن صارة مع اصحاب له في نهر اشبيلية "في عشية سال اصيلها على لجين الماء عقبانا وطارت زواريقها في سماء النهر عقبانا وابدى نسيمها من الامواج والدارات سررا واعكانا في زورق يجول جولان الطرف ويسود اسوداد الطرف" (٧)

---

(١) الذخيرة القسم الاول المجلد الثاني ٣٧١
(٢) " " " " " ٣٦٣
(٣) " " " " " ٣٦٣
(٤) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٠٨
(٥) " " " " ٢٨٩
(٦) " المجلد الاول الجزء الخامس ٢٩٥
(٧) " الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٠٣

تامل حالنا والجو طلق محياه وقد طفل المساء
وقد جالت بنا عذراء حبلى تجاذب حرطها ريح رخاء
بنهر كالسجنجل كوثرى تعيس وجهها فيه السماء (١)

واتفق ان وقف ابن خفاجة على القطعة واستفطر منها فقال يعارضها على وزنها ورويّها وطريقتها (٢)

الا حبذا ضحك الحميّا بحانتها وقد عبس المساء
واد هم من جياد الماء مهر تنازع جله ريم رخاء
اذا بدت الكواكب فيه غرقى رايت الارض تحسدها السماء (٣)

وهنا شاعر آخر يصف اصيل يوم قضاه بالخيف والنهر ينساب انسياب المذعور وهبوب الريح تولد على على صفحات الماء تموجات تسفر بدورها عن الحباب وقد نبت على ضفتيه قضب لدنه تحاكي قدود الحسان وازهر النور واخضر النبت .

ويوم لنا بالخيف راق اصيله كما راق تبر للعيون مذاب
نعمنا به والنهر ينساب ماؤه كما انساب ذعرا حين ريع حباب
وللموج تحت الريح منه تكسر تولد فوق المتن منه حباب
وقد نجمت قضب لدان بشطه حكتها قدود للحسان رطاب
واينع مخضر النبات خلالها كما اقبلت نعمى وراق شباب (٤)

اقبل اهل الاندلس على هذه المنزهات وهاموا بطبيعتها الفتانة وقد يصيح احدهم معبرا عن هذا الجمال الفتان ، وعن ايام سعيدة قضاها في ربوع احد الانهار فيقول :

ايا طيب ايام تقضت بروضة على لمح غدران وشم حدائق
اذ غردت فيها حمائم دوحها تخيلتها الكتاب بين المهارق (٥)

وما اجمل القمر والشمس حين يرسلان اشعتهما على ماء النهر فهذا يفضض وذاك يذهب

الا حبذا نهر اذا ما لحظته ابى ان يرد اللحظ عن حسنه الانس
ترى القمرين الدهر قد عنيا به يفضضه بدر وتذهبه شمس (٦)

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٠٣
(٢) " " " " " ٢٠٣
(٣) " " " " " ٢٠٩
(٤) قلائد العقيان " " ١٧٢
(٥) الطبيعة في الشعر الاندلسي — نوفل ٢٦٢
(٦) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٤٣٩

ويضفي البدر بهاءه السني فيقول ابن صارة :

انظر الى البدر واشراقه ... على غدير موجه يزهر

كشحذ من مجر اخضر ... خط عليه ذهب احمر (١)

وترسل الشمس زعفرانها اصيل يوم فتصبغ النهر :

انظر الى النهر في رداء عروس ... صبغته بزعفران العشيّ

ثم لما هب النسيم عليه ... هزّ عطفيه في دلاه الكميّ (٢)

ولا يتعدى ابن خفاجة في وصفه نهرا سائلا في السهول والبطاح ما يقوله زملاؤه ولكنه يرى هذا النهر الذى رق كأنه قوص الفضة وقد افرغ في الثوب الاخضر ، انه اشهى الى قلبه من شفاه الحسان .

لله نهر سال في بطحاء ... اشهى ورودا من لمى الحسناء

متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجر سماء

قد رق حتى ظن قرصا مفرغا ... من فضة في بردة خضراء

وغدت تحف به الغصون كانها ... هدب يحف بمقلة زرقاء

ولطالما عاطيت فيه مدامة ... صفراء تخضب ايدى الندماء

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الاصيل على لجين الماء (٣)

ومن جميل ما قيل في الانهار قول ابن سفر في نهر اشبيلية وهو نهر عظيم يصعد المد فيه اثني وسبعين ميلا :

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزأ فضم من الحياء ازاره (٤)

وهذا التشبيه جديد ومبتكر

ولعل اجمل ما قيل في الانهار قول ابن حمديس المغربي يصف نهرا بالصفاء وهو يسيل في روضة وقد انعشه الهواء العليل فاظهر ما يكنه ضميره ، ويمر على الحصباء فتجرحه وتؤلمه فيشكو اليها اوجاعه وآلامه بخريره :

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٣٩

(٢) " " " " ٣٤٠

(٣) ديوان ابن خفاجة ١٦ ــ ١٧

(٤) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ١٥٠

ومطّرد الامواج يصقل متنه صبا اعلنت للعين ما في ضميره
جريح باطراف الحصى كلما جرى عليها شكا اوجاعه بخريره
كأن حبابا ريع تحت حبابه فاقبل يلقي نفسه في غديره (١)

وتتجلى روح الابداع والابتكار عند ابن حمديس عندما يصف نهرا ينبعث من عين ماء فيقول :

ومروصدى الروضات يسحب ذائبا على الارض منه جملة تتبعّض (٢)

ويتامل ابن حمديس ويمعن النظر في صور الطبيعة فيرى النهر جاريا مهتزا وكأنه قروا ينفضه النسر ، ثم ينساب كأنه حية تطول وتعرض ، واذا ما مرت عليه الريح اصبح عمودا منقوشا بل يعود فيجعل من هذا الغدير روحا يحيي الجسم وينهضه ، وتنطبع نفسه الحزينة في هذا النهر وتتحول مياهه الى دموع عين لا ينقطع معينها ابدا .

اذا ما جرى واهتز للعين مزبدا حسبت به قروا من النسر ينفض
وتنساب منه حية غير انها تطول على قدر الحساب وتعرض
وتحسبه ان حبكت متنه الصبا عمودا علاه النقش وهو مفضض
له رعدة تعتاره في انحداره كما تبسط الكف العنان وتقبض
كأن له في الجسم روحا اذا جرى به نهضة والجسم بالروح ينهض
وما هو الآ دمع عين كأنها لطول بكاء دهرها لا تغمض (٣)

ويقول في النهر ايضا :

ولابس ثقب الاعراض جوهره له انسياب حباب رقشه الحبب
اذا الصبا لا زلقت فيه سنابكها حسبته منصلا في متنه شطب
وردته ونجوم الجو مائلة كما تدحرج درّ ما له ثقب
ومضرب طعنته غير نابية اسنة هي ان حققتها شهب (٤)
ومشرق كبياء الشمس في يده فضة الماء لمن القائها ذهب (٤)

ومع ان ابن حمديس لم يجدد في تصاويره وتشابيهه ولم يختلف عن زملائه الشعراء بتصوير الطبيعة ، الا انه يشفع له صدق العاطفة وشدة شغفه بالطبيعة ، فانه يضفي عليها الحياة ، ويجعل لها روحا تنعشها ، فما الانهار الا ارواح تحيي الرياض والرياحين ، وما ريح الصبا الا لسان صب ترسلته الروضة مطيّبا ليشكر الانهار وقال في ذلك يصف غديرا شقه نهر :

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الرابع الطبعة الجديدة ٢٠٤ ـ ٢٠٥

(٢) ديوان ابن حمديس

(٣) " " "

(٤) " " " ٢٤

وزرقاء في لون السماء تنبهت	لتحيكها ريح تهب مع الفجر
يشق حشاها جدول متكفل	يسقي رياض اليبست حلل الزهر
كما طعن المقدام في الحرب دارعا	بعضب فشق الخصر منه الى الخصر
يريك رؤوسا منه في جسم حية	سعت من حياة في حدائقه الخضر
فلا روضة الا استعارت لشكره	لسان صبا تسرى مطيّبة النشر (١)

٢ ـ البحيرات والبحـــار

احدثت البحار بجزيرة الاندلس ، ولهذا نرى الشعراء يتجهون الى البحر ويصفون الاساطيل والسفن الجارية فيه ، وقد تفنن كثيرون منهم في اوصافها وبخاصة ابو عمر القسطلي وابن خفاجة وابن الابار ، وابن وهبون .

ومما نلاحظه ان الاندلسيين كانوا يرهبون جانب البحر ويتجنبون ركوبه ، وربما يرجع هذا لعدم توفر الاسباب لتامين السفر ، بل يرون في ركوبه اكبر المصائب وافظع الاهوال ، ولا يقحمونه الا اذا اضطروا الى ذلك اضطرارا ، ويصف لنا المقرى صاحب النفح ركوبه البحر وسفره الى المشرق وما لاقاه من اهوال ومخاطر . فيقول " ركبنا البحر وحللنا السحر والنحر وشاهدنا من اهواله وتنافي احواله ما لا يعبّر عنه ولا يبلغ له كنه

البحر صعب المرام جدا	لا جعلت حاجتي اليه
اليس ماء ونحن طين	فما عسى صبرنا عليه ؟ (٢)

ويعود فيصف امواجه والريح القوية التي هبت عليهم " فكم استقبلتنا امواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر قد ازعجتها اكف الريح من وكرها كما نبهت اللجج من سكرها فلم تبق شيئا من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجبال صفيرا ، وللرياح دويا عظيما وزفيرا وتيقنا انا لا نجد من ذلك الا فضل الله مجيرا وخفيرا " واذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون الّا اياه وايسنا من الحياة ، لصوت تلك العوصف والمياه فلا حفظ الله ذلك الهوى المزعج ولا بيّاه والموج يصفق لسماع اصوات الرياح فيطرب بل يضطرب فكأنه من كأس الجنون يشرب اوشرب ، فيستعد ويقترب وفرقة تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ، فتخال الجوّ ياخذ بنواصيها وتجذبها ايديه من قواصيها حتى كاد سطح الارض يكشف من

(١) ديوان ابن حمديس ١٥٩

(٢) النفح المجلد الاول الجزء الاول الطبعة الجديدة ٩٥

خلالها وعنان السحب يختطف في استقلالها والشراع في قراع مع جيوش الامواج التي امدت منها الافواج بالافواج ونحن مقود كدود على عود بين فرادى وازواج . وقد نبت بنا من المغلق امكنتنا وخرست من الفرق السنتنا ، وتوهمنا انه ليس في الوجود اغوار ولا نجود الا السماء والماء وذلك السفين ، ومن في قبر جوفه دفين " (١)

وفي ركوب البحر يقول ابو عمر القسطلي وهو متوجه الى سرقسطه ولا يختلف رايه في ركوب البحر عن المقرى فيقول مخاطبا الخليفة خيران العامرى صاحب المريه

اليك شحنا الفلك تهوى كأنها	وقد ذعرت من مغرب الشمس غربان
على لجج خضر اذا هبت الصبا	ترامى بنا فيها ثبير وثهلان
مواثل ترعى في ذراها مواثلا	كما عبدت في الجاهلية اوثان
وفي طيّ اسمال الغريب غرائب	سكّن شغاف القلب شيب وولدان
يرددن في الاحشاء حرّ مصائب	تزيد ظلاما ليلها وهي نيران
اذا فيضما البحر منها مددته	بدمع عيون تمتريهن اشجان
وان سكنت عنها الرياح جرى بها	زفير الى ذكر الاحبة حنّان
ثقلن وموج البحر والهم والدجى	تموج بنا فيها عيون وآذان
الا هل الى الدنيا معاد وهل لنا	سوى البحر قبراو سوى الماء اكفان (٢)

وفي البحر يقول القسطلي ايضا :

مورت بسوس والنجيم كأنها	توقد من فكرى وتسرج من ذهني
واسريت من بدر الظلام بالبة	بصحبة مطفي الجمر او مكفيء الظعن
لبسنا بها ليلا من الثلج ابيضا	كسته يد العنبر ثوبا من القطن
ورحنا على البيرة فاستقل بي	جناح عقاب لا يروح الى وكن
ولما تنكبنا المنكب لم تجد	لنا مركبا اهدى سبيلا من السفن
ترامت بنا الاهوال في كل لجة	تخيّلها جوّا تجلّل بالدّجن
ترى السفن فوق الموج فيها كانها	تحدر من رعن وتوفي على رعن (٣)

ولقد كان للعرب اسطول في الاندلس فتفنن الشعراء في وصفه ومن ابرع اوصافهم للسفن قول ابن يزيد بن عبد الله بن خالد :

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الاول الطبعة الجديدة ٩٧

(٢) الذخيرة القسم الاول الجزء الاول ٧٤ ـ ٧٥

(٣) " " " " " ٣١٥

ويا للجوارى المنشآت وحسنها — طوائر بين الجوّ والماء عوما

اذا نشرت في الجوّ اجنحة لها — رايت به روضا ونورا مكما

وان لم تهجه الريح جاء مصافحا — فمدت له كفا خضيبا ومعصما

مجاذف كالحيات مد تترو وسها — على وصل في الماء كي تروى الظما

كما اسرعت عدا انامل حاسب — بقبض وبسط يسبق العين والفما

هي الهدب في اجفان اكحل اوطف — فهل صنفت من عندم او بكت دما (١)

وقال عبد الله بن الحداد يصف اسطول المعتصم بن صمادح

هام صرف الردى بهام الاعادى — ان سمت نحوهم لها اجياد

وتراءت بشرعها كعيون — دأبها مثل خائفيها سهاد

ذات هدب من المجاذيف حـــــــــــــاك هدب باك لدمعه اسعاد

حمم فوقها من البيض نار — كل من ارسلت عليه رماد

ومن الخط في يدى كل در — الف خطها على البحر صاد (٢)

ولابي الحسن بن حريق في هذا المعنى :

وكانما سكن الاراقم جوفها — من عهد نوح خشية الطوفان

فاذا راين الماء يطفح نضنضت — من كل خوقة حية بلسان (٣)

وقال آخر يصف الشراع :

ولها جناح يستعار يطيرها — طوع الرياح وراحة المتطرب

يعلو بها حدب العباب مطاره — في كل لج زاخر مقلولب

يسمو بآخر ذى الهواء منصب — عريان منسرح الذؤابة شرذب

يتنزل الملاح منه ذؤابة — لو رام يركبها القطا لم يركب

وكأنما رام استراقة مقعد — للسمع الا انه لم يشهب

وقال ابو عمر القسطلي ايضا :

وحال الموج بين بني سبيل — يطير بهم الى الصوب ابن ماء

اغر له جناح من صباح — يزارف فوق جنح من سماء (٤)

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٧٢

(٢)

(٣)

(٤) النفح المجلد الثاني الطبعة الازهرية ٣٧٣

وقال ابن خفاجة :

وجارية ركبت بها ظلاما يطير من الصباح بها جناح
اذا الماء اطمأن وراق خصرا علا من موجه ردف رداح
وقد نفر الحمام هناك ناه والثج جهده لاجل المناح (١)

وقال عبد الجليل ابن وهبون يصف الاسطول :

يا حسنها يوما شهدت زفافها بنت الفضاء الى الخليج الازرق
ورقاء كانت ايكة فتصورت لك كيف شئت من الحمام الاورق
حيث الغراب يجر شملة عجبه وكأنه من غرة لم ينعق
من كل لابسة الثياب ملاءة حسب اقتدار الصانع المتانق
شهدت لها الاعيان ان شراعها اسماؤها فتصحفت في المنطق
من كل ناشرة قوادم اجنح وعلى معاطفها وهادة سودنق
زارت زئير الاسد وهي صوامت وزحفن زحف مواكب في مأزق
ومجاذف تحكي اراقم ربوة نزلت لتكرع من غدير متأق (٢)

٣ - الاحواض والنواعير

تعلم من الفصول السابقة ان الخلفاء والامراء اولعوا بالناحية العمرانية فتفننوا وغالوا بتجميل المدن واشادة الابنية الفخمة واولعوا بناحية خاصة وهي رؤية المياه تجرى على مختلف الاشكال والانواع فزينوا القصور بحدائق غناء مسوجة بالعرائش والكروم تزخر باشجار الفاكهة ومختلف الزهور واجروا من تحتها الجداول والانهار العذبة . واسالوا الغدران الصافية في البيوت والمنازل ، كما اقاموا القنوات العديدة لجلب المياه العذبة من الجبال المجاورة وتوزيعها في كل ساحة من ساحات المدينة ، وتوسطت الشوارع النوافير الجميلة التي كان ينبثق الماء منها فتبعث في النفس الغبطة والسرور كما فعل الناصر حين جلب المياه العذبة من جبل قرطبة الى قصر الناعورة "في مناهر مهندسة وعلى الحنايا المعقودة يجرى ماؤها بتدبير عجيب" (٣) ينساب ماؤها الى بحيرة عظيمه اقيم عليها اسد عظيم الصورة

---

(١) النفح المجلد الثاني الطبعة الازهرية ٣٧٤
(٢) " " " " " ٣٧٤
(٣) " " الاول الجزء الخامس الطبعة الجديدة ٥٣

ويظهر ان اهل الاندلس كانوا يستعملون الدواليب والنواعير لرى البساتين وقد استرعت انتباههم خصوصا المياه المندفعة منها التي كانت تذكرهم بالدموع المتساقطة من العين — وقال ابو جعفر بن وضاح في دولاب :

وباكية والروض يضحك كلما ... الحت طيه بالدموع السواجم

يروقك منها ان تاملت نحوها ... زئير اسود والثقاف اراقم

تخلص من ماء الغدير سبائكا ... فتنبتها في الروض مثل الدراهم (١)

وقال ابو الحسن بن سعد الخير :

لله دولاب يفيض بسلسل ... في روضة قد اينعت افنانا

قد طارحته بها الحمائم شجوها ... فيجيبها ويرجع الالحانا

فكأنه دنف يدور بمعهد ... يبكي ويسأل فيه عمن بانا

ضاقت مجارى طرفه عن دمعه ... فتفتحت اضلاعه اجفانا (٢)

ووصف احدهم ناعورة فقال :

وذات حنين ما تغيض جفونها ... من اللجج الخضر الصوافي على شط

فتبكي فتحيي من دموع جفونها ... رياضا تبدت بالازاهر في بسط

فمن احمر قان وصفر فاقع ... وازهر مبيض واد كن مشمط

كأن ظروف الماء من فوق متنها ... لآلي جمان قد نظمن على قرط (٣)

وهكذا نجد ان الشعراء في جميع هذه الاوصاف لم يجاوزا الشكل فانهم لم ينفذوا الى اسرار البحار والانهار يرسمونها ويضفون عليها الوان الفن كما فعلوا في غيرها من الوان الطبيعة ٠ كما ان تشبيهاتهم للمياه كانت محصورة جدا فلم تتعد تشبيه المياه بالدروع والسيوف والحلق والزرد والاراقم والمجرة والبلور(المجلى) كما حصروا تشبيه صوت المياه وخريرها بزئير الاسود وغناء الطيور ٠

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٣٤١

(٢) " " " " " ٣٤١

(٣) " " " " " ٢١٠

وكانت الاحواض والصهاريج تصنع من المرمر المنقوش او من النحاس كما كانت في القصور تصنع من الذهب الابريز او الفضة . ويحكى انه اجتمع ثلاثة من الشعراء وهم ابو جعفر بن سعيد ، والكندى وابن نزار في جنة بهية وفيها صهريج ماء قد احدق به شجر نارنج وليمون وغير ذلك من الاشجار وعليه انبوب ماء تتحرك به صورة جارية راقصة بسيوف وطيفور رخام يصنع في انبوبه الماء صورة خباء . فقالوا نقتسم هذه الاوصاف الثلاثة فقال ابو جعفر يصف الراقصة : (١)

وراقصة ليست تحرك دون ان	يحركها سيف من الماء مصلت
يدور بها كرها لتنضى صوارما	عليه فلا تعيا ولا هو يبهت
اذا هي دارت سرعة خلت انها	الى كل وجه في الرياض تلفت (٢)

وقال ابن نزار في خباء الماء :

رايت خباء الماء ترسل ماءها	فنازعها هب الرياح رداءها
تطاوعه طورا وتعصيه تارة	كراقصة حلت وضمت قباءها
وقد قابلت خير الانام فلم تزل	لديه من العلياء تبدى حياءها
اذا ارسلت جود امام يمينه	ابى العدل الا ان يرد اباءها (٣)

وقال الكندى في الصهريج :

وصهريج تخال به لجينا	يذاب وقد يذهبه الاصيل
كان الروض يعشقه فمنه	على ارجائه ظل ظليل
وتمنحه اكف الشمس عشقا	دنانيرا فمنه لها قبول
اذا رفع النسيم القضب عنها	فحينئذ يكون لها سبيل
وللنارنج تحت الماء لما	تبدى عكسها جمر بليل
ولليمون فيه دون سبك	جلاجل زخرفت نصبا تجول
فيا روضا به صقلت جفوني	وارهف متنه الزهر الكليل
تناثر فيك اسلاك الغوادى	وقبل صفح جدواك القبول
ولا برحت تجمع فيك شملا	من الاكياس والكأس الشمول
يهيم بهم نسيم الروض الفا	فمن وجد له جسم عليل (٤)

---

(١) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٩٠
(٢) " " " " " ٢٩٠
(٣) " " " " " ٢٩٠
(٤) " " " " " ٢٩١

وكأنها ترمي السماء ببندق　　مستنبط من لؤلؤ وجمان

لو عاد ذاك الماء نفطا احرقت　　في الجو منه قبيص كل عنان

في بركة قامت على حافاتها　　اسد تذل لعزة السلطان

نزعت الى ظلم النفوس نفوسها　　فلذلك انتزعت من الابدان

وكأن برد الماء منها مطفيء　　نارا مضرّمة من العدوان

وكأنما الحيات من افواهها　　يطرحن انفسهن في الغدران

وكأنما الحيتان اذ لم تخشها　　اخذت من المنصور عقد امان (١)

وقال احد الاندلسيين يصف بركة عليها فوارات :

غضبت مجاريها فاظهر غيظها　　ما في حشاها من خفي مضمر

وكأن نبع الماء من جنباتها　　والعين تنظر منه احسن منظر

قضب من البلور اثمر نورها　　لما انثنت باللؤلؤ المتحدر (٢)

وفي هذا المعنى قال ابن حمديس يصف نهرا كما سبق :

ومطرّد الامواج يصقل متنه　　صبا اعلنت للعين ما في ضميره (٣)

ويصف ابن سارة بركة فيها سلاحف :

لله مسجورة في شكل ناظرة　　من الازاهر اهداب لها وطف

فيها سلاحف الهاني تغامصها　　في مائها ولها من عوبض لحف

تنافر الشط الا جين يحضرها　　برد الشتاء فتستدلي وتنصرف

كانها حين يبديها تصرفها　　جيش النصارى على اكتافها الحجف (٤)

وقال الاعمى التطيلي في اسد نحاس يقذف الماء :

اسد ولو اني انا ــــــــــــــــــ قشه الحساب لقلت صخره

فكأنه اسد السما ــــــــــــــــــ ء يمج من فيه المجره (٥)

ولبعضهم في شكل يرمي الماء مجوّفا مثل الخباء وتمزقه الريح احيانا :

ومطنّب للماء ما اوتاره　　الا افكار طبع حاذق

لعبت به ايدى الصبا فكأنها　　ايدى الصبابة بالفؤاد العاشق (٦)

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الرابع الطبعة الجديدة ١٩٦

(٢) » » » » » » » ٢٠٤

(٣) » » » » » » » ٢٠٥

(٤) قلائد العقيان ٢٧١

(٥) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٢٩٢

(٦) » » » » ٢٤٠

ثم ينتقل الشاعر الى وصف تلك الشجرات الذهبية والفضية المثقلة بالاثمار العجيبة وقد رقد الطير على اغصانها . كما مجت هذه الطيور بذورها الماء من مناقيرها فانسابت كاللجين ~~الكبير~~ النمير او خيوط فضة ، كما كان صفير المياه المتدفق كالتغريد ، اما قطرات الماء المتساقطة من افواهها فكانها لؤلؤ منثور فوق زبرجد :

وبديعة الثمرات تعبر نحوها	عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى	سحر يؤثر في النهى تاثيرا
قد صولجت اغصانها فكانما	قبضبهن من الفضاء طيورا
وكانما ~~لوقع طيرها~~ تابى لوقع طيرها	ان تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها	ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت	جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكانما في كل غصن فضة	لانت فارسل ضبطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها	فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا (١)

ويصف ابن حمديس بركة اخرى تجرى اليها المياه من شاذروان من افواه طيور وزرافات واسود وكل ذلك في احد القصور العظيمة ، وان اختلفت كلمات هذه القصيدة عن سابقتها غير انها لا تختلف عنها البتة في الصور والتشابيه :

والماء منه سبائك من فضة	ذاب على درجات شاذروان
وكانما سيف هناك مشطب	القته يوم الروع كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجبا	من دوحة نبتت من العقيان
عجبا لها تسقي الرياض ينابعا	نبعت من الثمرات والاغصان
خصت بطائرة على فنن لها	حسنت فافرد حسنها من ثان
من الطيور الخاشعات بلاغة	وفصاحة من منطق وبيان
فاذا اتيح لها الكلام تكلمت	بخرير ماء دائم الهملان (٢)
اوفت على حوض لها فكانها	منها على العجب العجاب روائي
فكانها ظنت حلاوة مائها	شهدا فذاقته بكل لسان
وزرافة في الجوف من انبوبها	ماء يريك الجرى في الطيران
مركوزة كالرمح حيث ترى لها	من طعنة الخلق انعطاف سنان

---

(١) النفح المجلد ~~العجز~~ الاول الجزء الرابع الطبعة الجديدة ١٨٨

بديع الصنع شديد الروعة يجوز الماء الى مؤخره فيدفعه الى البحيرة وبجانبه تمثال لانسان هائل يصب الماء على الاسد ومن ثم يتحول الماء الزائد الى النهر بعد ان تنال ××× المدينة كفايتها .

واليك ما فعل المامون بن ذي النون عندما شاد قصره العظيم في طليطلة فقد اتقنه الى الغاية وانفق عليه اموالا طائلة ، وصنع في وسطه بحيرة وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب وجلب الماء على راس القبة بتدبير احكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من اعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض فكانت قبة الزجاج في غلالة من ماء سكب خلفه الزجاج لا يفتر عن الجرى ، والمامون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب (١)

وقال ابو محمد المصرى يصف البركة والقبة عليها :

شمسية الانساب بدرية	يحار في تشبيهها الخاطر
كانما المامون بدر الدجى	وهي عليه الفلك الدائر (٢)

ولعل اجمل ما قيل في وصف البرك قول ابن حمديس الصقلي يصف بركة عليها اشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه ، وقد ربضت اسود على جوانبها تقذف المياه الصافية من افواهها ، وكانما خرير المياه المتدفقة زئير تلك الاسود الجبارة التي تتاهب للهجوم والشمس ترسل اشعتها النارية عليها فتخال الماء المنساب من افواه هذه الاسود نارا والسنها نورا او سيوف سلت ولكنها عادت فذابت بلا نار وتحولت الى مياه جارية :

وضراغم سكنت عرين رياسة	تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكانما غشى النضار جسومها	واذاب في افواهها البلورا
اسد كان سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكانما	اقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	نارا والسنها اللواحس نورا
فكانما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعدن غديرا (٣)

ولم يختلف الشعراء في تشبيه النسيم وما يتركه على صفحة الماء من غضون وتجعد سواء اكان في النهر او البرك فالصورة في نظرهم واحدة :

وكانما نسج النسيم لمائه	درعا فقدر سردها تقديرا (٤)

---

(١) النفح المجلد الاول الجزء الرابع ٢٨٤
(٢) " " " " " ٢٨٦
(٣) " " " " " الطبعة الجديدة ١٨٦
(٤) " " " " " " " ١٨٧

الجبــــال والاوديـــــة

١ ـ الجبـــال

يلاحظ بشيء من الدهشة ان "الجبال" رغم كثرتها في الاندلس لم تكن لتوئثر في الشعراء او توحي اليهم بالشيء الكثير لذلك لا نرى لها اثرا كبيرا في قصائدهم • واذا ما ذكرت فبشيء من الحذر والخوف والرعب لا تحببا اليها او تغزلا فيها • وتبدو هذه الظاهرة عند اكثر من شاعر • ولعل المناظر الخلابة للبساتين المنتشرة هنا وهناك والانهر المنسابة كالافاعي في الوديان النضرة والمروج الخضراء • كل ذلك شغل الشعراء عن التغزل بالجبال • وقد يحق لشاعر كابن خفاجة ان يرهب منظر الجبل وقد انتصب كالجبار في وجه المسافر يناطح بقممه اعالي الفضاء ويقف بوجه الاعاصير من كل جانب ويزحم ظلام الليل بمنكبيه مرتفعا في وسط سهل مقفر كانه مفكر وقف في ظلام الليالي الطوال يتساءل عن معاني الاشياء تاركا للغيوم والبروق ان تحيك حوله عمائم سوداء بذوائب حمراء :

وارعن طماح الذوءابة باذخ	يطاول اعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة	ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كانه	طوال الليالي مفكر في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم	لها من وميض البرق حمر ذوائب (١)

ويتخيل الشاعر ان الجبل يحدثه عن اشياء عجيبة رغم صمته وسكونه فيصغي اليه في هدأة الليل وهو يقول : الا كم كنت ملجأ المجرم ووطن الهارب المتبتل من العالم نحو ربه • وكم من مرة مر المسافرون امامي لا يعلمون الى ليل ام الى نهار هم سائرون !!! كل هوءلاء شاهدتهم وحاولت ان اردهم مع العواصف ، ولكن كل هذه الكائنات طوتها يد الموت وعبثت بها رياح الفرقة والشقاء

وكم مر بي من مدلج ومؤوب	وقال بظلي من مطي وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي	وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان الا ان طوتهم يد الردى	وطارت بهم ريح النوى والنوائب (٢)

ويتعمق الشاعر في انطاق الجبل فيحمله على التفلسف في الحياة والكائنات اذ يقول : واذا ما سمعت خفقان الروح على سفحي الهادىء فاصغ الى تنهدات قلبي المتعب ، واذا ما رايت المآقي مني قد جفت فلا تقل انني سلوت ، ولكنني نزفت دموعي على فراق احبتي •

---

(١) ديوان ابن خفاجة ٢٧

(٢) ابن خفاجة ٢٧

فما خفق ايكي غير رجفة اضـــلعي ولا نوح ورقي غير صرخة نادب

وما غيض السلوان دمعي وانمـــا نزفت دموعي في فراق الصواحب (١)

ويسترسل الجبل في تساؤله ودهشته الى متى سيظل على حاله يودع الكوكب تلو الكوكب والى متى سيبقى مكانه بينما يظعن الاصحاب . فيتضرع الى الله لنوال رحمته .

فحتى متى ابقى ويظعن صاحب اودع منه راحلا غير ايّب

وحتى متى ارعى الكواكب ساهرا فمن طالع اخرى الليالي وغارب

فرحماك يا مولاى دعوة ضارع يمد الى نعماك راحة راغب

وكاني بابن خفاجة قد وجد في هذا الجبل الصامد خير واعظ ومسل وصديق في سروه اذ يقول :

فاسمعني من وعظه كل عبرة يترجمها عنه لسان التجارب

فسلى بما ابكى وسرى بما شجـا وكان على عهد السرى خير صاحب

وقلت وقد نكبت عنه لـسطية سلام فانا من مقيم وذاهب (٢)

ويذكر ابن خفاجة جبلا اخر فلا يختلف رايه فيه مما رايناه في المثال السابق فهو يرى فيه موطن الذعر ويراه في شموخه وطموحه مقطبا عابسا رغم ضحك البدر الذى يشرق من فوقه

واشرف طماح الذوابة شامخ تتعلق بالجوزاء ليلا له خصر

وقور على مر الليالي كانما يصيخ الى نجوى وفي اذنه وقر

تمهد لله كل ركن ركانة فقطب اطراقا وقد ضحك البدر

ولاذ به نسر السماء كانما يحن الى وكر به ذلك النسر

ثم يتساءل ابن خفاجة وقد رابه صمته وسكينته عن علة وقره اسببها كبر سنه ام كبرياؤه وشموخه

فلم ادر من صمت له وسكينة اكبرة سن وقرت منه ام كبر (٣)

وفي الاندلس جبال عديدة متنوعة بعضها خصب تكثر فيه الاشجار المثمرة كالتفاح والكمثرى والخوخ واشجار الزيتون او اشجار لا تثمر تستعمل للاخشاب والبعض الاخر قاحل مجدب موحش يوحي الرهبة في القلوب . وانه من المدهش المستغرب الا توحي هذه الجبال بشيء لشعرائنا رغم كثرتها وجمال بعضها كما يتضح لنا من ذكر صفاتها كما وردت في مصادرها الاولية فهناك جبال قلعة ايوب (٤) وينحدر منها نهر عظيم في مدينة سرقسطه (٥) وفي غربي اشبيليه جبل الشرف وهو شريف البقعة كريم

---

(١) ابن خفاجة ٢٧

(٢) " " الديوان ٢٧

(٣) ديوان ابن خفاجة ٦٤

(٤) صفة جزيرة الاندلس ـ الحميدى ـ نشر لافي بروفنصال ١٦٣٠

(٥) " " " " " " " ٩٦ ، ١٦٣

التربة دائم الخضرة لاتصل الشمس الى ارضه لكثافة اشجاره واشتباك اغصانها (١)

وهناك الجبل الذى ينبت الورد الذكي العطر والسنبل الرومي الطيب (٢) وهناك الجبل العظيم المنيف الكثير المسارح والمياه حيث ينمو وينبت فيه شجر التفاح العجيب وتتضوع منه روائح العود الذكي (٣) وشكير جبل الثلج المشهور واحد مشاهير جبال الارض ينزل به الثلج شتاء وصيفا وينساب منه ستة وثلاثون نهرا من فوهات الماء وتنبجس من سفوحه العيون وهو في غاية العلو يتصل بالبحر المتوسط (٤) وقد تغزل ابن صاره الشاعر دخول جهنم على العيش في برده اذ يقول :

يحل لنا ترك الصلاة بارضكم	وشرب الحميا وهو شيء محرم
فرارا الى ارض الجحيم فانها	احن علينا من شكير وارحم
فان كنت ربي مدخلي في جهنم	ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم (٥)

وهناك الجبال التي ينبت فيها البنفسج بطبعه (٦) وجبل شبيه الشامخ الذى ينبت اصناف الازاهير واجناس الافاويه والعقاقير (٧) وجبل العيون (٨) والعيون (٩) والورد (١٠) والكحل (١١) وجبل الكهف (١٢) الاجرد يقول فيه عبد الملك بن ادريس المعروف بالجزيرى حين سجنه المنصور في احد ابراجه :

في رأس اجرد شاهق عالي الذرى	ما بعده لمؤمل من مقصر
يأوى اليه كل اعور ناعق	وتهب فيه كل ريح صرصر
ويكاد من يرقى اليه مرة	من دهره يشكو انقطاع الابهر (١٣)

وفي جبل طارق الذى يقوم قبالة الجزيرة الخضراء ويفصل البحر بينهما يقول مطرف شاعر غرناطه :

يعرض نحو الافق وجها كانما	تراقب عيناه كواكب منزل
واقود قد القى على البحر متنه	فاصبح من قود الجبال بمعزل (١٤)

---

(١)

(٢) صفة جزيرة الاندلس ـ الحميدى ـ نشر لافي بروفنصال ١٠٥ (٩) الحميدى ٣٥ ، ١٦٩

(٣) " " " " " " ١٠٥ (١٠) " ١٦٢

(٤) " " " " " " ١١٢ (١١) " ٤٥

(٥) " " " " " " ١١٢ (١٢) " ١٢٤

(٦) " " " " " " ١١٣ (١٣) " ١٢٥

(٧) " " " " " " ١٤٩ (١٤) الطبيعة في الشعر العربي

(٨) " " " " " " ١٥٣ سيد نوفل ٢٦٠

وفي الاندلس جبال ينبت فيها الزيتون المتناهي في الجودة (١) ومنها جبل زرهرهون ومنه تنبجس العيون وفيه تكثر اشجار الزيتون وفيه يقول احد الشعراء وقد حاول وصف الطبيعة باشجارها الجميلة وهوائها العليل ومائها الطيب ، وورودها الحمراء الخجلى وازاهيرها الباسمة فوق الغصون ، ولمع البرق في انحائه ضاحكا ، فيبكي عذاب عيونه بعيون +

بالحسن من مكناسة الزيتون قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذى يجرى بها وسلامة المحزون
سحت عليها كل عين ثرة للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين اباطح وافتر ثغر الزهر فوق غصون
جبل تضاحكت البروق بجوه فبكت عذاب عيونه بعيون
وكانما هو بربرى وافد في لوحه والتين والزيتون (٢)

وهكذا فان ذكروا الجبال فبشيء من الخوف والوجل وشيء من الحذر .

٢ ـ الاوديـــــة

ولم تقل الوديان في الاندلس في اشجارها وكثرة اثمارها ووفرة ازهارها وتعدد انهارها جمالا وروعة وعددا عن الجبال ، وهي كالجبال لم تذكر كثيرا في شعر الشعراء ولم تكن مصدر وحيهم والهامهم ، فلم تتحرك في وصفها اقلامهم ، ولم تخفق لها قلوبهم اللهم الا نفرا قليلا استطاعوا ان يذكروا لنا بعض هذه الوديان الشهيرة ، وان يصفوا طبيعتها الخلابة الجذابة ، والذى يلفت النظر في هذه الوديان جمال اسمائها . فوادى العسل (٣) وعلى نهره المسمى بهذا الاسم بساتين وجنات ، ووادى الحجارة وفيه من غلة الزعفران الشيء الكثير (٤) ووادى آش وقد قامت بجانبه مدينة كبيرة خطيرة تجرى حولها المياه والانهار (٥) ووادى البحر (٦) ووادى الطلح وهو منزه جميل ملتف الاشجار تكثر فيه الاطيار المغردة (٧) وهنالك وديان كثيرة اخرى يضيق المقام عن ذكرها تطالع القارئ

---

(١) الحميدى ـ صفة جزيرة الاندلس ١٤٢

(٢) المقرى ـ الجزء الرابع طبعة بولاق ٢٩

(٣) صفة جزيرة الاندلس ـ الحميدى ـ ٧٣ ـ ٧٤

(٤) " " " " ١٩٣

(٥) " " " " ١٥٢

(٦) " " " " ١٥١

(٧) المقرى المجلد الاول الجزء الخامس طبعة جديدة ٤٢٣

في الكثير من المصادر الاولية يمر عليها الشعراء مر الكرام فلا تثير شعورهم ولا تحرك عواطفهم •

ويتضح لي من مطالعة الادب الاندلسي ان لوادى آش منزلة رفيعة عند اهل الاندلس اذ انه خص بالنصيب الاوفر من الشعر ، فقد خصه اكثرهم بالوصف والمدح ، ووادى آلآش هذا ويقال وادى الاشات مدينة جليلة قد احدقت بها البساتين والانهار وقد خص الله اهلها بالادب وحب الشعر (١) ويصف ابو الحسن بن نزار جمال ذلك الوادى بازاهيره واشجاره وانداءه الملطفة لهجير حره ، والشمس الراغبة ان تنال منه لحظة تتمنعها الافياء ، والنهر المنساب كالافعى الرقطاء يبتسم ابتسامة دل واغراء لاغصان الشجر المائلة على حوانيه :

وادى الاشات يهيج وجدى كلما	اذكرت ما افضت بت النعماء
لله ظلك والهجير مسلط	قد بردت لفحاته الانداء
والشمس ترغب ان تفوز بلحظة	منه لتطرف طرفها الافياء
والنهر يبسم بالحباب كانه	سلخ نضته حية رقشاء
فلذاك تحذره الغصون فميلها	ابدا على جنباته ايماء (٢)

وفي هذا الوادى ايضا تقول حمدة بن زياد ابياتها المشهورة تصفه بوادى ظليل خصب يسقيه الغيث المدرار ، كريم حنون يحنو على ضيوفه حنو المرضعات على اطفالهن ، فيسقي العطشى من مائه الزلال الذى يفوق الخمرة لذة وطعما وتصد ايكه الملتفة حرارة الشمس عنهم وتفسح المجال للنسيم العليل ، واذا ما مرت عذراء به ووقع بصرها على حصاه اشتبه عليها الامر فتسرع الى عقدها تتلمسه مرتاعة خشية ان يكون انفرط وانتثر امامها •

وقانا لفحة الرمضاء وادى	سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمأ زلالا	الذ من المدامة للنديم
يصد الشمس انى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حاليه العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم (٣)

ولقد اختلف المؤرخون في نسبة هذه الابيات • فالبعض يقول انها لحمدة والبعض ينسبها الى المنازى ولكن المقرى يميل الى نسبتها الى حمدة ويستشهد على ذلك باقوال عدة من مشاهير الادباء ومؤرخي الادب (٤)

---

(١) المقرى المجلد الاول الجزء الاول ٢٩٣
(٢) • • • • • ٢٩٤
(٣) النفح الجزء الثاني الطبعة الازهرية ٤٩١
(٤) • • • • • ٤٩٢

وفيه تقول حمدة في مكان اخر وقد تذكرت فيه موقفا عاطفيا اثار دموعها :

اباح الدمع اسراري بوادى	له في الحسن اسرار بوادى
فمن نهر يطوف بكل روض	ومن روض يطوف بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة انس	سبت لبي وقد سلبت فؤادى
لها لحظ ترقده لامر	وذاك الامر يمنعني رقادى
اذا سدلت ذوائبها عليها	رأيت البدر في افق السواد
كأن الصبح مات له شقيق	فمن حزن تسربل بالسواد (١)

وقد اثر وادى سحل او شنيل في ابن سعيد ابن حسان الشاعر فنظم فيه ابياتا جميلة وصف فيها منظره البهيج وازهاره المتنوعة وطبيعته الساكنة الهادئة . فلم يتعد في ذلك الوصف ما قاله الشعراء في الطبيعة الاندلسية .

وما شاقني الا نضارة منظر	وبهجة واد للعيون تروق
تامل اذا املت حوز مؤمل	ومد من الحمرا عليك شقيق
واعلام نجد والسكينة قد علت	والشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شنيل فرندا مهندا	نضى فوق درّ در فيه عقيق
واذا ثم منه طيب نشر اراكة	اراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت	ثغور اقاح في الرياض انيق (٢)

ويتذكر ابو آخر اوقاته السعيدة التي كان يسرح فيها مع احبته بين الغصون الخضراء والمياه الجارية تحت الاشجار الباسقة بكرع الماء الزلال ويشاهد حصباء الانهر تلمع كأنها الدرّ والبلابل تشدو فوق الشجر والطبيعة ساحرة تزدان بشذاها الطيب ونسيمها العطر

رعى الله وادى شنيانه	وتلك الغدايا وتلك الليال
ومسرحنا بين خضر الغصون	وورق المياه وسحر الظلال
ومرتعنا تحت اد واحه	ومكرعنا في النمير الزلال
نشاهد منها كعرض الحسام	اذا ما انتست فوقه كالعوال
ولله من درّ حصبائه	لآل واحسن بها من لآل

---

(١) الاحاطة الجزء الاول ٢١٥ ـ ٢١٦

(٢) " " " ٢٥ ـ ٢٦

وبلبله في ستور الغصون | كخور ترنم فوق الحجال
واسحاره كيف رقت شذا | وصح النسيم بها في اعتدال (١)

وهناك وادى الطلح ، وكثيرا ما كان المعتمد بن عباد يقصده مع جاريته الرميكية واولي انسه ومسرته انتجاعا للراحة وطلبا للعافية . ولهذا الوادى في شعر نور الدين ابن سعيد في قصيدة طويلة مطلعها :

سائل بوادى الطلح ريح الصبا | هل سخّرت لي من زمان الصّبا (٢)

ويذكره هذا الوادى بعهد حبيب على قلبه حيث مالت الاغصان والزهور ، وشدت الطير الحانها اللطيفة المطربة :

واذكر بوادى الطلح عهدا لنا | لله ما احلى وما اطيبا
بجانب العطف وقد مالت الـ | أغصان والزهر يبث الصبا
والطير مازت بين الحانها | وليس الا معجبا مطربا (٣)

---

(١) الاحاطة الجزء الاول ١٤٠
(٢) المقرى المجلد الاول الجزء الخامس الطبعة الجديدة ٤٢٣
(٣) " " " " " " " ٤٢٤ ـ ٤٢٥

في الطيــر والحيوان والهــوام

يعيش في الاندلس من الحيوانات ما يعيش في حوض البحر المتوسط وقد ذكر صاحب النفح بعض هذه الحيوانات فقال " ويكون بالاندلس من الغزال والايل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك ما لا يوجد في غيرها كثيرا . واما الاسد فلا يوجد فيها البتة ولا الفيل والزرافة ، وغير ذلك مما يكون في اقاليم الحرارة ولها سبع يعرف باللب اكبر بقليل من الذئب في نهاية من القحة . وقد يفترس الرجل اذا كان جائعا . وبغال الاندلس فارهة وخيلها ضخمة الاجسام حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو في خيل البر الجنوبي . ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول وكذلك حيوان البحر ودواب بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض . قال ابن سعيد : عاينت من ذلك العجب والمسافرون في البحر يخافونها لئلا تقلب المراكب فيقطعون الكلام ، ولها نفخ بالماء من فيها يقوم في الجو ذا ارتفاع مفرط (١) .

ويظهر ان اهل الاندلس كانوا يأكلون لحوم الاغنام والبقر والدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان (٢) . وعندهم نوع من الحيوان ادق من الارنب واطيب طعما يدعى القنلية وكذلك كانوا يأكلون لحم الغزال (٣) والسمك (٤) . ويظهر ان هذه الحيوانات لم تجذب افكار الشعراء ولم توجه اليهم بالشيء الكثير ولعل الفرس احسن هذه الحيوانات حظا عند شعراء الاندلس فقد شادوا واطنبوا في ذكرها ، ولعل هذه الظاهرة ترجع الى سببين ، الاول ان ذكر الخيل في الشعر العربي كثير جدا فقد كان العربي منذ اقدم عصوره يعتز بفرسه ويفضلها على نفسه ويخص قسما كبيرا من شعره لوصفها وذكر محاسنها وشجاعتها واخلاقها . فكان لا بد للشاعر الاندلسي وهو الذي يأثر الشاعر المشرقي في كل شيء ان يقلده ايضا في وصف الفرس وحبه بها .

اما السبب الثاني وقد مر معنا شيء منه فيما سبق فهو صلة الشعر الاندلسي الوثيقة بالخلفاء والامراء والعظماء من رجال الدولة . فلقد رأينا ان الشعر الاندلسي لم يكن في الغالب الا صدى لهؤلاء الاشخاص الذين كانوا يسيرون امور الدولة . فجاء الشعر معبرا عن امانيهم وغاياتهم سواء كان في مدحهم او في وصف قصورهم وحدائقهم وكل ما يمت اليهم بصلة حتى ولو كان الشعر في الحيوانات التي كانوا يستخدمونها في شتى اغراضهم وهنا يجب ان لا ننسى ان تاريخ الاندلس تاريخ جهاد وكفاح ، وحرب وقتال وان الفرس هي العامل الاول الذي لعب دوره في هذا الجهاد فكان من الطبيعي وعرب الاندلس مشغوفون بحبهم لوطنهم الجديد مندفعا للذود عنه وبذل كل شيء لحمايته وصيانته من كيد العدو ان يهتموا بالخيل وان يصفها الشعراء بقصائد كثيرة وان يأتي ذكرها في شعرهم اكثر من اي حيوان آخر .

---

(١) النفح المجلد الثاني الطبعة الجديدة ٦٣ ـ ٦٤ (٢) النفح مجلد (٥) طبعة جديدة ٥٩
(٣) " طبعة بولاق الجزء الاول ٩٤ (٤) " الجزء الاول طبعة بولاق ١٢٥

لذلك ساحاول ان اسرد امثلة وصفهم للخيل بانواعها المختلفة ببعض اشعارهم التي تبرز فيها صفات هذه الحيوانات الجميلة المحبوبة . قال ابن خفاجه وهو يصف فرسا اشقر مخضبا بلون الدم يطرب لصوت الحسام فيندفع الى الحرب كانه شرارة من النار فينقض على الاعداء انقضاض الصواعق :

ومطهم شرق الاديم كانما	الفت معاطفه النجيع خضابا
طرب اذا غنى الحسام مزق	ثوب العجاجة جيئة وذهابا
قدحت يد الهيجاء منه بارقا	متلهبا يزجي القتام سحابا
ورمى الخفاظ به شياطين العدى	فانقض في ليل الغبار شهابا
يسامر بثغر الحلى تحسب انه	كاس اثار بها المزاج حبابا (١)

وله في فرس اشقر ايضا بعض الابيات وهي لا تختلف في معناها عما ذكر

واشقر تضرم منه الوغى	بشعلة من شعل الباس
من جلنار ناضر خده	واذنه من ورق الاس
تطلع للغرة في وجهه	حبابة تضحك في كاس (٢)

وقال ايضا يصف فرسا يعاني الشرى كانه في يوم الوغى نجم من النجوم القاذفة :

ومشرق الهادى طويل السرى	ضافي سبيب الذيل والعرف
يصرف الفارس في لهده	طرفا به اسرع من طرف
مؤدبا لو كان مستعبدا	لم يعبد الله على حرف
من انجم السعد ولكنه	يوم الوغى من الكلا انجم القذف (٣)

اما الفرس السريع فهو اسرع من الشهاب والبرق ولا يستطيع ان يخبرك عن سرعته الا الرياح :

اطرف فات طرفي ام شهاب	هفا كالبرق ضرمه التهاب
اطار الصفح صفحته نقابا	تفر به وضح لنا النقاب
نمهط حت خال الصبح وانى	ليطلب ما استعار فما يصاب
اذا ما انقض كل النجم عنه	وضلت عن مسالكه السحاب
فيا عجبا له فضل الذرارى	فكيف ازال اربعة التراب
سل الارواح عن ادنى مداه	تمتد الريح قد يلقى الجواب (٤)

ويقول ابو الحسن بن سعيد العنسي في فرس اصفر اغر اكحل الحلية

واجرد تبرى اثرت به الثرى	وللفجر في خصر الظلام وشاح
له لون ذى عشق وحسن معشق	لذلك فيه ذله ومراح
عجبت له وهو الاصيل بعرفه	ظلام وبين الناظرين صباح
يقيد طير اللحظ والوحش عندما	يطير بع نحو النجاح جناح (٥)

---

(١) ديوان ابن خفاجه ٢٦ (٢) ديوان ابن خفاجه ٧٥ (٣) ديوان ابن خفاجه ٨٦
(٤) النفح جزء الثاني طبعة ازهرية ٢٢٤ (٥) النفح جزء الثاني طبعة ازهرية ٤٤٨

وتبدو في اوصاف ابن حمديس للفرس ميزة التقليد لمعاني الشعراء القدماء فتشعر كانك تقرأ شعرا من امرئ القيس وزهير .

ومديد الخطى كانك مسلمه	تضع اللبد فوق تيار سيل
قيد وحش بلا ذخائر وهسن	وقرى معقل وحارس لـيل
اسبق الريح فوقه نا ذا ما	فتها امسكت بفضلة ذيل (١)

وقال يصف فرسا ادهم :

وادهم ينهب عرض المدى	ويجرى به كل عرق كريم
بعيني عقاب وشدقي غراب	وارساغ جاب وساقي ظليم
كان البرق على جسمه	مداوس تصقل منه اديم
وتحسب غرة صبح منير	بدت منه في وجهه ليل بهيم (٢)

ويصبح التقليد هنا واضحا جليا حين يستعير ابن حمديس الفاظ امرئ القيس فيقول في فرس ادهم كان يؤثر ركوبه على غيره

ومنغمس في صبغة الليل يمتطي	بمآجل الاساد قيد الاوابد
يختم بحناء قبيعة صارم	لما قد طلى من سنبل الهام حاصد
يكر فكم جسم على الارض ساقط	صريع وكم روح الى الجو صاعد
واسد تصير الاسد كالبهم عندها	اذا ما الظباة خطت ربوع القلائد
اطلت وقد حان الجلاء سكونها	بقولك للابطال هل من مجالد (٣)

وقال في جواد :

ومجرور في الارض ذيل عسيبه	حمل الزبرجد منه جسم عقيق
يجرى ولمع البرق في آثاره	من كثرة الكبوات غير مفيق
ويكاد يخرج سرعة من ظله	لو كان يرغب في فراق رفيق (٤)

وقال في فرس :

وطائرة بد الخيول بسيقها	وقد لبست للحسن من نرس خلقا
اذا ثنت الفت على الغرب رجلها	ونالت يد منها بوثبتها الشرقا
لحوق كاني جاعل من لحقتها عنقا	لرسغ الثرا عقلا وحيدا له ابقا
كريم ترى من نقعها سحبا لها	ومن رشحها قطرا ومن لحظها برقا (٥)

---

(١) ديوان ابن خفاجة حمديس ٣٥٤ (٢) ديوان ابن حمديس ٣٧٥
(٣) « « « ١١٤ (٤) « « « ٢٨٨
(٥) « « « ٢٨٨

هذا اهم ما جاء في وصف الفرس والى القارئ نماذج مختلفة لوصف بعض الحيوانات التي عاشت في الاندلس وقال ابن خفاجه في قصيدة قصيصة يذكر التفاء ء في مفازة مظلمة بذئب ختال غدار تقشعر الابدان لرؤيته وتقدح النيران من عينيه :

ومفازة لا نجم في ظلمائها	يسرى ولا فلك بها دوار
تتلهب الشعرى بها وكانها	في كف زنجي الدجى دينار
ترمي بها الشيطان فيها والرى	دولا كما يتموج التيـــــار
قد لفني فيها الظلام وطاف بي	ذئب يلم مع الدجى زوار
طراق ساحات الديار مساور	ختال ابناء السرى غدار
يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا	في فروة قد مسها اقشعرار
تغشوت في ظلماء لم تقدح بها	الا لمقلته وباسي نـــار
ورفلت في خلع علي من الدجى	عقدت لنا من انجم ازرار
والليل يقصر خطوه ولربمـــا	طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق	فيها ومن خط الهلال عـــذار (١)

وقال احدهم في صفة كلب وارنب

واطلس ملء جانحتيه خسوف	لا شوس ملء شدقيه ســلاح
يباهرنا بطير حذار طـــاو	له ركض يغص به البـــــراح
واعجب ان تقلص لجلا ذيل ليل	احم وقد اجد به الرواح
يجول بحيث يكثر عن نصال	مؤللة وتحمله رمـــــــاح
وطورا يرتقي حدب الروابي	وآونة تسيل به البطــــاح
جرى شدا وللصبح التماع	بحيث جرى وللبرق التمــاح
تخلخله وسوره ويـــــفن	جرى معه وطوقه صبـــــاح (٢)

ووصف احدهم كلب صيد في عنقـــه بيـــاض

وادهم دون حلى ظلى حالـي	كان ليلا يقلده صـــباح
يطير وما له ريش ولكن	متى يهفو فارمه جنـــاح
تكل الطير مهما نازعـــته	وتحسده اذا مر الريـــاح
له الالحاظ مهما جاء سلك	ومهما سار فهي له وشـــاح (٣)

---

(١) ديوان ابن خفـاجه ٥٩ (٢) ديوان ابن خفاجه ٣٧

(٣) النفح الجزء الثاني الازهرية ٤٦٨

وقال ابن خفاجة في نعجة سوداء :

وسوداء تدمي تبها متحسرا	كما امتزج الليل تحت الشفق
واقسم لو خلت لبلــــــة	لعفت الكرى واستطبت الارق
متخلع من فروها صحــــوة	سواد الدجى عن بياض الفلق
فيا حسن خصر لها احـــــــمر	ومئزر شحم عليـه يفـق
وما رفلت في قميص الظلام	ولا اشتملت في رداء الغسق
ولكن تسيل عليها القلـــوب	هوى وتذوب عليها الحدق (١)

وتنني لا شعر انه من الافضل ان اكتفي بهذا القدر من الامثلة في الحيوان وذلك لعدم توفر الامثلة الجديرة بالذكر ه لولا انني اردتها رسالة شاملة اعرض بها بعض النماذج في وصف الحيوان والطير والهوام لا لطرافتها او جدة صورها بل لتكون مثالا ناطقا عما وصل اليه الاندلسي في هذا الباب .

وليس للشعراء الاندلسيين من جديد في اوصافهم الطيور على انواعها نعم لا يتعدون وصف لونها وريشها وقوامها وضوافيها . وهم لا يرون فيها اكثر مما رآه قبلهم الشعراء المشرقيون فهم يتاثرون خطى هؤلاء الشعراء في المعنى والمبنى والى القارئ بعض الاوصاف في هذه الطيور .

وقال يصف حمـــامـــة :

وناطقة بالراء سجعا مرددا	كحسن خرير من تكسر جدول
مغردة في القضب تحسب جيدها	مقلد طوق بالجمان المفصل
اذا ما امحى كحل الدجى من جفونها	دعتك الى كاس الغزال المكحل .
ملات لها كف الصبوح زجاجـــة	مذهبة بالراح فضة انمـل (٢)

وقال ايضا يصف الزرافـــة

ونوبية في الخلق منها خلائـــق	متى ما ترق العين فيها تسهل
اذا ما اسمها القاه في السمع ذاكر	راى الطرف منه ما عناه بمقـــول
لها فخذ اقرم واظلاف قرهــب	وناظرتا رئم وهامة ايــــل
مطلقة الاخلاق كبرا وعزة	فمهما تجد بالمشي في المشي تبخل
وكم حولها من سائس حافظ لـها	يكرمها عن خطة المستـبدل
ترى خلف رجل يلتقي ان تنقـلت	بطلفيه منها عزيز التنقـــل
كان الخطوط البيض والصفر اشبهت	على جسمها ترصيع عاج بصندل

---

(١) ديوان ابن خفاجه ٨٦ (٢) ديوان ابن حمديس ٣١٧

ودائمة الاقعاء في اصل خلقها ... اذا قابلت ادبارها حين مقبل
تلفت احيانا بعين كحيلة ... وجيد على طول اللواء مظلل
وعرف دقيق الشعر تحسب نبته ... اذا الريح هزته ذوائب سنبل
تنفس كبرا من براع مستعجب ... فتعطي جنوبا منه من اخذ شمأل
وتنفض راسا في الزمام كانما ... تريك له في الجو نفضة اجدل
اذا طلع النطح استجادت نطاحه ... براس له هاد على السحب معتل
وقرنين اولت منهما كل عقدة ... كرمانتي باب الخباء المقفل
اذا قمها بالتبر زادت تعززا ... على كل خود ذات تاج مكلل
وتحسبها من نفسها ان تبخترت ... تزخلق الى بعل عروسا وتبخل ي
وكم منشد قول امرى القيس حولها ... افاطم مهلا بعض هذا التدلل (١)

ويظهر ان الصيد كان عادة محببة عند الاندلسيين ولذلك نجد اوصافا كثيرة عند ابن حمديس للصيادين وحيوانات الصيد وفي الابيات التالية يصف الصقور والكلاب وقد خرج مع رفاقه للصيد .

وسامية الالحاظ للصيد قربت ... وهل نام عنا الليل وانتبه الفجر
بكرنا على اكبادها ندرى بها ... طرائد معمورا بها البلد القفر
تساهل عنها السحب والترب جراة ... جوارح فوق الراح اعينها خزر
فوارس الا انها اقبلت في جواشن ... من الرقم لم تخلق لها البيض والسمر
وغضف نرى اذ انهن لواحظا ... لمن خدود وهي من هبوة عنبر
ومرى غلا عند النتاج حديدة ... نتائجها منه اذا وضعت شفر
دنا لنا منها جناح بوُيزة ... كقارعة العصفور طارعن الذعر
اقام عليها موقد كير سحره ... يصلي لها حرا وقد تلج لها الصدر
رددنا بها روحا على تبو اورق ... يبلبله ريح ويضربه قطر
اقامت اثانيه من الدعر برهة ... عوارى لم تركب رواحلها قدر
ولما تظلى جمرها وتجدلت ... وقعت بايدينا ذوائبها الحمر (٢)

اما في الديك وعلى راسه تاج احمر فيمكن ان يقال فيه اكثر ما يقال في غيره من الطيور وقال الاسعد فيه

كان انو شروان اعلاه تاجه ... وناطت عليه كف مارية القرطا
ومنها
وطائر حسن بالسقاة موكل ... يحب قلوب الشرب يلقطها لقطا
توهم عطف الصدغ لونا بخده ... فبلت بمسك الخال ينقطه نقطا (٣)

---

(١) ديوان ابن حمديس ٣٢٤ ٣٢٥ (٢) ديوان ابن حمديس ١٥٠
(٣) الذخيرة القسم الاول المجلد الثاني ٢٩٧

ويصف ابن سعيد العنسي غراب البين متشائما متطيرا منه

اذا ما غراب البين صاح فقل لـه ترفق رماك الله يا طير بالبعد
لانت على العشاق اقبح منظـــرا واكره في الابصار من ظلمة اللحد
تصيح بنوح ثم تعثر ماشـيــا وتبرز في سود من الحزن مسـود
متى تحت صح البين وانقطع الرجـا كانك من وشك الفراق على وعد (١)

والقمري بشجوه الحنون ونوحه الباكي كثيرا ما يثير دموع الشعراء العشاق او الحزانى ٠ فالمعتمد ابن عباد ينظم انظر الشعر وارقه يرثي ولده عندما يرى قمرية تنوح وامامها وكرليه طائران يردد ان نغما ويغردان ترحة وترنحا :

بكت ان رأت الفين ضمهما وكـر مساء وقد اخنى على الفها الدهر
وناحت فباحت واستراحت بسرها وما نطقت حرفا يبوح به سـر
فما لا ابكى ام القلب صخرة وكم صخرة في الارض يجرى بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده وابكي لالاف عديدها كثـــر
بني صغير او خليل موافـــق يمزق ذا قفر ويغرق ذا بـحـر
ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء او رندة القبـر
غدرت اذا ان ضن جفني بقطرة وان لومت نفسي فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي لمثلهما فلتحزن الانجم الزهـر (٢)

الحـــشـــرات

النحـــلـــة :

ومن الذين اهتموا بالحشرات والهوام من شعراء الاندلس ابن شهيد وابن حمديس وقد جاء في الذخيرة : قال ابو الحسن " وقد ضارع ابو عامر بن شهيد هذا محاسن الطبيعة العالية البغدادية الضارعة التي بانت فيها قوته ولدنت اختراعاته وقدرته فصار يتناول المعنى الحسن فيميز حسنا بحسن سياقه ٠ وقال يصف النحلة :

وطائرة تهى كان جناحها ضمير خفي لا يحدده وهـم
ملازمة للروض حتى كانما لها كل ما تفترعنه الربى طعم
تمج بفيها الشهد صرفا ويختفي لمشتاره ما بين احشائها سهم
منافرة للانس تانس بالفلا مفرقة للشهد من بعضها السم
فادناؤها رشد وهتك حجابها اذا احتجبت في غير ايامها ظلم (٣)

---

(١) النفح المجلد الثاني الطبعة الازهرية ٤٤٨ (٢) قلائد العقيان ٢١
(٣) الذخيرة قسم اول مجلد اول ١٨٥ – ١٨٦

وقال في صفة البرغوث :

ومنفر للنوم سكته اذا	نام الملك ، بين اثناء الثياب
يسري الى الاجسام يهتك عدوه	من كل جسم صيغ بالنعمى حجاب
ويحفز ارداف الحسان وماله	كف ولكن نوه من اعدى الحراب
متحكم في كل جسم ناعم	متدلل ما بين الحاظ الكعاب
فاذا هممت بزجره ولى ولا	يثنيه ما قد تعوده طلاب
وترى مواقع عضة مخضوبة	بدم القلوب وما تعاوره خضاب
قرم من الليل البهيم مكور	يمشي البراز وما تواريه ثياب
عظمت رزيئة ولكن قدره	اخفى واهون من ذباب في تراب (١)

وقال ابن حمديس يصف عقربا وقد ابدع في ذلك بدقة ملاحظة ودقة تعبير وتصوير

ومسرعة بالموت للطعن صعدة	فلا قرن انى نادته يوما يجيبها
مداخلة في بعضها خلق بعضها	كجوشن عظم ثلثه حروبها
تذيق خفي السم من وخز ابرة	اذا لسعت ماذا يلاقي لسيبها
وتحمل بالراحات من لم يحت بها	الى حين خاضت في حشاه كروبها
اذا لم يكن لون البهارة لونها	فمن يرقان دب فيها شحوبها
لها سورة خصت بصورة رده	ترى العين منها كل شي يريبها
وقد نصلت للطعن معني صعدة	بشوكة عناب قتيل زبيبها
ولم ترعين قبلها سمهرية	منظمة نظم الفرند كعوبها
لها طعنة لا تستبين لناظر	ولا يرسل المسمار فيها طبيبها
تسمت بها قيسا وذكرى طعينة	وقد دق معناها وجل خطوبها
يحمل منها بائع السم بغشة	تجيع قلوب في الضلوع دبيبها
لها سقطة في الليل مؤذية بما	اذا وجهت راع القلوب وجيبها
ونقر خفي في الشخيص كانه	بكل مكان يتنحيه رقيبها
ومن كل قطر يتقي شرها تما	تذاءب في جنح الدجنة ذيبها
تجيء كام الشبل غضبى توقدت	وقد تهج اليافوخ منها عسيبها

(١) الذخيرة قسم اول ١٨٥ - ١٨٦

ومنها الى ان يقـــول :

هـدوم الانسـان يحمر بينه	فكيف يوالي رقدة بـتطيبـها
ولولا دفاع الله عنـا بلطــفـه	لصبت من الدنيا علينا خطوبها (١)

وقال يصـــف الذبـــاب الذى يقـع على الارض

ومودع في العطايـا لـمعة حمـــة	تبذهم الروح تعذيبا من الحسـد
يخشي السوام مناقيرا فتحسبـهـا	مباضعا مدميات كل مفتـصـد
يكحك من دمها الفاني يدا بيد	حك الظريف بحناء بنان يـد (٢)

وقال في عـقـــرب ايـــضا

وذات خلـق تريب الخلق صورته	فكل ناظرعين ليس يالـفــه
كان شوكة عناب بمبضعـهـــا	يجرع السم منه من يصادفـه (٣)

---

(١) ديـــوان ابـــن حمـديـس ٣٧ ـ ٣٨

(٢) ديـــوان ابن حمديس ١١١ ـ ١١٢

(٣) ديـــوان ابـــن حـــمــديــس ٢٧٦

كـلـمـة خـتـامـيـة

واخيرا لا بد من كلمة ختامية نختصر فيها ما اجملناه واسهبنا في شرحه في الفصول السابقة فنقول :

اولا - تقليد الشعراء الاندلسيين الشعراء المشرقيين تقليد عاما جعلهم في كثير من الاحيان ، بعيدين عن ان يحسوا احساسا شخصيا صادقا .

ثانيا حملهم هذا التقليد على الاكتفاء بمآثر الشعراء المشرقيين فلم ياتوا بالمعاني الجديدة ولم يضيفوا على الشعر العربي المعروف شيئا يستحق الذكر الا في بعض الموشحات .

ثالثا لم يصف الاندلسيون الطبيعة متدفقين بتيار جمالي داخلي في نفوسهم يحثهم على حبهما وتخليدها في شعرهم بل وصفوها ارضاء لعظيم من العظماء او امير من الامراء او تزلفا لاحد هؤلاء الناس .

رابعا الطبيعة عند الشاعر الاندلسي هي في العمران والبناء والفن لا في الحقل والزهور والرياحين وما يمكن ان توحيه هذه الحياة الريفية الساذجة للشعراء .

خامسا فقدان النزعة التاملية . فالشاعر الاندلسي يعنى اكثر ما يعنى بالشكل الظاهر الخارجي ، اكثر ما يعنى بروح الطبيعة . قد يصف هذا الشاعر الطبيعة بعد ان ينظر اليها ولكنه لا يتاملها ولا يتعمق في تاملاته لهو يظهر دائما في اوصافه ، هائما بالحسن والجمال ، جمال الاشكال وجمال الرياحين والازهار بعيد عن ان يستجلي معانيها العميقة .

سادسا ان فقدان النزعة التاملية ادت الى استعارات واحدة وتشابيه مكرورة متماثلة ، في وصف محاسن طبيعتهم . فاللون الاحمر يذكرهم جميعا بالدم او الفم او الخدود الملاح ، واللون الاصفر يذكرهم بالعاشق الولهان او المهجور الفارق ولم يخرج شاعر في تصويره لمرور الريح فوق الماء عن تشبيهه بالزرد والحلق والدروع . ولا نجد وصفا لطير الا وهو ساجع على الغصون الخضراء .

سابعا سهولة الشعر الاندلسي وهلهلته جعلته حبيبا الى النفوس سهلا الى الحفظ . فلا يحتاج القارئ الى استعمال المعاجم الا في الشعر الذي يصف بعض الحيوانات كالفرس والاسد . وهنا يبدو الشعراء الاندلسيون مقلدين المشارقة .

ثامنا في الشعر الاندلسي سطحية في المعاني وتوشية في الالفاظ . فالشعراء الاندلسيون لم يغوصوا على المعاني يصطادونها من الاعماق كما كان يفعل شعراء المشارقة بل تناولوها سهلة، قريبة المتناول . واهتموا بزخرفة الالفاظ وتنميقها وتزيينها يسدون بها تقصيرهم .

ولعل في تعداد هذه المزايا ، مزية مزية ، نكون قد وضعنا امام القارئ ملخصا للشعر الاندلسي في وصف الطبيعة كما يبدو امام الباحثين والدارسين . ولست ادعي الاحاطة بالموضوع من جميع اطرافه ونقاطه ولكني اعترف بفخر بانني بذلت جهدا كبيرا للوصول الى كل ما يجب وما يمكن الوصول اليه لدراسة هذا الموضوع . وان خير ما أختم به رسالتي : كلمة العماد الاصبهاني الذي استطاع ان يصور بها تصويرا دقيقا ، ما يخالج نفس المؤلف بعد ان يكتب ما يكتب ، من قلق روحي يدفعه دائما الى حذف شيء اوزيادة شيء آخر مما اشعر به انا بعد كتابة ما تقدم ويشعر به كل كاتب على ما ارجح . قال العماد :

("اني رأيت انه لا يكتب انسان كتابا في يومه الا قال في غده : لوغير هذا كان احسن ، ولوزيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان افضل، ولو ترك هذا لكان اجمل و وهذا من اعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر")

الطبيعة في الشعر الاندلسي

هذه رسالة تبحث في شعر الطبيعة في الاندلس تناولت فيها قبل البحث في جوهر الموضوع وبشيء من الايجاز تاريخ الفتح الاندلسي والاسباب التي دعت اليه والعوامل التي ساعدت على ذلك والثورة الاجتماعية التي تمخض عنها الفتح العربي واثرها الفعال في نفوس شعراء الاندلس وتلوين شعرهم بلون خاص .

قال الاندلسيون الشعر في مواضيع شتى ونظموه في ابواب مختلفة ولكنهم ابدعوا وبرعوا بصفة خاصة في ذكر بلادهم الجميلة ووصف محاسنها ومفاتنها . وحق لهم ذلك فقد اصبحت الاندلس في ايام استتب فيها الامن على يد العرب الفاتحين جنة الله في ارضه فتعددت خيراتها ودنت قطوفها . واصبحت هذه الطبيعة الحلوة وهذه البساتين المشرقة وهذه الجنات التي لا نظير لها في اعتدال الهواء وعذوبة الماء شغل الشعراء الشاغل . فهم اذا ما مدحوا شبهوا ممدوحيهم بالروضة الغناء يهب فيها النسيم العليل .

واذا ما تغزلوا صاغوا من الورد خدودا ومن النرجس عيونا ومن الآس اصداغا ومن السفرجل نهودا ، ومن قصب السكر قدودا ومن قلوب الجوز وسرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رضابا بل اكثروا من تشبيه الحبيب بانواع الرياحين والرياض والبساتين وربما غالوا في ذلك حتى جعلوا من محبوبهم روضة مختلفة الازهار والالوان .

وتثير الطبيعة في نفس ابن زيدون شاعر الحب والجمال معاني الهوى وتحرك لواعجه ويرى الهوى في طلوع النجوم والمنى في هبوب النسيم . والحبيب عنده شمس تطلع من نقاب بل غصن بان يرفل في وشاح .

وكانوا اذا رثوا صوروا الروض منثنيا على المرثى ، كما تجرى جداول الماء على الخدود حزنا عليه ويهتز الناس هزة الاغصان بكاء على المصاب وقد بكى الشاعر بحزن اليم يصيب منه الفؤاد فيطلب من الطبيعة ان تؤاسيه وان تهطل السحب دموعا .

وهكذا نرى ان الطبيعة عند الاندلسي تتقبل جميع الصور وتتقمص جميع الاشكال .

ومثل هذا الشعر كثير جدا عند الاندلسيين ولكنه على كثرته لم تتنوع صوره ولم تتعدد مناحيه ولم يتعمق الشعراء في ابتكار معانيه حتى انهم لم يختلفوا كثيرا بعضهم عن بعض في انواع الاستعارات والتشابيه فالمعاني الواحدة تتكرر وتتردد في عدة قصائد لشعراء مختلفين بالفاظ واحدة وتعابير واحدة . اذ لم يكن الشاعر الاندلسي وهو يصف الرياض والبساتين الا كالرسام البارع الذى توفرت لديه المناظر البهجة ولكنه على توفرها وجمال الوانها لم يستطع ان ينقلها لنا الا كما التقطتها ريشته فلم يتمكن الا ان يسكب فيها روحا من روحه او ان يلونها

بريشة مغموسة بدم قلبه بل كان شاعرنا يخرج الى الطبيعة مع رفاقه يهيم بجمالها ويتمتع بسحرها ثم يقف امام مذياع لينقل الى الناس مشاهداته ومغامراته ومما تركته الطبيعة في نفسه من اثر وشعور يصدران عن الحس والمشاهدة فكان الشاعر يقرا من سفر الطبيعة كما تراءت له لا اكثر ولا اقل . ولم يكن هذا بالشيء العسير فقد توفرت لديه المناظر وزخرت لغته بالاسماء والاوصاف لشتى مظاهر الطبيعة واثارها وحالاتها واوقاتها فما كان منه الا ان ينقلها الينا بقالب شعري لطيف . ولهذا نرى ان هذا الشعر اتسم بالفتور واصطبغ بالصنعة وهيمنت عليه مسحة التكلف والتطرف ولعل ذلك يرجع الى ان شاعرنا لم يخرج الى الطبيعة يتأملها لاجلها وحدها ويستجلي محاسنها وان يحاول النفاذ الى معانيها واستكشاف اسرارها وغوامضها بل كانت هنالك دوافع عديدة خارجية تدفعه الى وصفها والتغني بمحاسنها اهمها :

(١) تهافت الشعراء وتزاحمهم على عطايا الامراء والخلفاء ووقفهم شعرهم على هؤلاء الملوك لمآربهم الخاصة والعامة فكثيرا ما كان الشاعر لا يقول الشعر الا بناء على طلب اميره في مدحه ووصفه ووصف قصوره ومبانيه وحدائقه وما حوت من الغرائب والنوادر .

(٢) منافسة الشعراء ومناظرتهم بعضهم بعضا في وصف الرياض والرياحين والبساتين حبا بالمنافسة والمناظرة لا ميلا الى الطبيعة والتغني بها .

(٣) كثيرا ما كانت هذه الاوصاف ترتجل ارتجالا دون ان يفكر الشاعر تفكيرا عميقا فيأتي بمعاني مبتكرة جديدة .

فهذه الاسباب ومثلها الكثير هي التي صبغت الشعر الطبيعي بصبغة التصنع والتكلف فجاء في اكثره متشابه الصور والالفاظ سطحي المعاني بادي الكلفة والتزويق .

وقد قسمت شعر الطبيعة في الاندلس الى فصول وهي :

(١) المـــاء (٢) الخضـــراء (٣) الجبـــال والاودية (٤) الطير والحيوان والهـــوام

<u>المـــاء</u> : تناولت في فصل الماء الجداول والغدران ، البحيرات والبحار ،الاحواض والنواعير .

ومما يلفت النظر في هذا الباب ان الشعراء اكثروا من تشبيهات المياه بالمعدات الحربية ، فالنسائم وما تتركه فوق المياه من غضون وتجاعيد شبهوها بالدروع كما اكثروا من تشبيه الانهار بالمهند المصقول في حال عدم مرور النسيم فوقه وخلاصة القول ان الشعراء في جميع هذه الاوصاف لم يتجاوزوا الشكل فانهم لم ينفذوا الى اسرار البحار والانهار يرسمونها ويضفون عليها الوان الفن كما فعلوا في غيرها من الوان الطبيعة كما ان تشبيهاتهم للمياه كانت محصورة جدا فلم تتعد تشبيه المياه بالدروع والسيوف والحلق والزرد والاراقم والمجرة والبلور المجلي كما حصروا تشبيه صوت المياه ~~وخريرها~~ دويها بزئير الاسود وغناء الطيور .

٢ . الخضـــراء : تبسطت في هذا الفصل بصورة خاصة لكثرة ما قيل فيه من الشعر ويحتوي على الرياض والحدائق بورودها ورياحينها وغراس فاكهتها وسواها . فتكلمت عن وصف الشاعر لهذه الرياض وحبه لها في جميع حالاتها ووصفه لاثمارها وازهارها ثمرة ثمرة وزهرة زهرة ثم تطرقت الى المنتزهات العديدة المنتشرة في الاندلس وما للخلفاء والعظماء ورجال الدولة من فضل في تحسينها وتجميلها وتشجيع الناس على ورودها والنظم فيها .

٣ ـ الجـــبال والاوديــة

يلاحظ بشيء من الدهشة ان " الجبال " رغم كثرتها في الاندلس لم تكن لتؤثر في الشعراء او توحي اليهم بالشيء الكثير لذلك لا نرى لها اثرا كبيرا في قصائدهم ، واذا ما ذكرت فبشيء من الحذر والخوف والرعب لا تحببا اليها او تغزلا فيها .

ولم تقل الوديان في الاندلس في اشجارها وكثرة اثمارها ووفرة ازهارها وتعـــدد انهارها جمالا وروعة وعددا عن الجبال . وهي كالجبال لم تذكر كثيرا في شعر الشعراء ولم تكن مصدر وحيهم والهامهم ، فلم تتحرك في وصفها اقلامهم ولم تخفق لها قلوبهم اللهم الا نفرا قليلا استطاعوا ان يذكروا لنا بعض هذه الوديان الشهيرة وان يصفوا طبيعتها الخلابة الجذابـــة .

٤ ـ الطـير والحـيوان والهـوام

ان هذه الطيور وهذه الحيوانات والحشرات لم تجذب افكار الشعراء ولم توح اليهم بالشيء الكثير ولعل الفرس احسن هذه الحيوانات حظا عند شعراء الاندلس . ولعل تاثر الشاعر الاندلسي بالشاعر المشرقي هو الذي جعله يميل الى الفرس وان يقلده في وصفه الفرس وحبه لها . حاول الشعراء في هذا الباب تقليد شعراء المشرق فلم ينجحوا كثيرا .

وارى من الخير ان اختصر واجمل ما اسهبت في شرحه في سائر فصول الرسالة بكلمة ختامية فاقول :

اولا ـ قلد شعراء الاندلس شعراء المشرق تقليدا عاما جعلهم في كثير من الاحيان بعيدين عن ان يحسوا احساسا شخصيا صادقا .

ثانيا ـ حملهم هذا التقليد على الاكتفاء بمآثر الشعراء المشرقين فلم يأتوا بالمعاني الجديدة ولم يضيفوا على الشعر العربي المعروف شيئا يستحق الذكر الا في بعض الموشحـات

ثالثا ـ لم يصف الاندلسيون الطبيعة مندفعين بتيار جمالي داخلي في نفوسهم يحثهم على حبها وتخليدها في شعرهم بل وصفوها ارضاء لعظيم من العظماء او امير من الامراء او تزلفا لأحد هؤلاء الناس .

رابعا ـ الطبيعة عند الشاعر الاندلسي هي في العمران والبناء والفن لا في الحقل والزهور والرياحين وما يمكن ان توحيه هذه الحياة الريفية الساذجة للشعراء .

خامسا ـ فقدان النزعة التأملية . فالشاعر الاندلسي يعنى اكثر ما يعنى بالشكل الظاهر الخارجي اكثر ما يعنى بروح الطبيعة . قد يصف هذا الشاعر الطبيعة بعد ان ينظر اليها ولكنه لا يتأملها ولا يتعمق في تأملاته فهو يظهر دائما في اوصافه ، هائما بالحسن والجمال ، جمال الاشكال وجمال الرياحين والازهار بعيدا عن ان يستجلي معانيها العميقة .

سادسا ـ ان فقدان النزعة التأملية ادت الى استعارات واحدة وتشابيه مكررة متماثلة في وصف محاسن طبيعتهم . فاللون الاحمر يذكرهم جميعا بالدم او الفم او الخدود الملاح ، واللون الاصفر يذكرهم بالعاشق الولهان او المريض المفارق ولم يخرج شاعر في تصويره لمرور الريح فوق الماء عن تشبيهه بالزرد والحلق والدروع . ولا نجد وصفا لطير الا وهو ساجع على الغصون الخضراء .

سابعا ـ سهولة الشعر الاندلسي وهلهلته جعلته محببا الى النفوس سهلا الى الحفظ . فلا يحتاج القارئ الى استعمال المعاجم الا في الشعر الذي يصف بعض الحيوانات كالفرس والاسد . وهنا يبدو الشعراء الاندلسيون مقلدين المشارقة .

ثامنا ـ في الشعر الاندلسي سطحية في المعاني وتوشية في الالفاظ . فالشعراء الاندلسيون لم يغوصوا على المعاني يصطادوها من الاعماق كما كان يفعل شعراء المشارقة بل تناولوها سهلة قريبة المتناول . واهتموا بزخرفة الالفاظ وتنميقها وتزيينها يسدون بها تقصيرهم .

ولعل في تعداد هذه المزايا ، مزية مزية ، نكون قد وضعنا امام القارئ ملخصا للشعر الاندلسي في وصف الطبيعة كما يبدو امام الباحثين والدارسين .